عصير الكتب
للنشر والتوزيع

محمد قصير

سربندي

مجموعة قصصية

محمد قصير

سربندي

مجموعة قصصية

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

سربندي

مجموعة قصصية

محمد قصير

القصة القصيرة:

لحظة اختزلت في لحظات

تعتبر القصة القصيرة تجسيدًا للأحداث والمشاعر الإنسانية في إطار لحظة مكثفة. فهي تقدم لنا "لحظة اختزلت في لحظات" من خلال قدرتها على تلخيص تجربة أو حالة إنسانية معقدة في مساحة قصيرة، مما يتيح لنا استشعار عمق التجربة والاندماج معها بشكل فوري.

من خلال هذا النوع الأدبي، يتمكن الكاتب من نقلنا إلى عالمه الخاص، حيث يمكن لحظة واحدة أن تعبر عن حياة كاملة، ويمكن لتجربة قصيرة أن تحمل في طياتها معاني ودلالات أعمق مما تبدو عليه في الظاهر. القصة القصيرة، إذن، ليست مجرد سرد لحدث معين، بل هي نافذة نطل من خلالها على عوالم داخلية وخارجية، تتشابك فيها الأحداث والمشاعر والأفكار في لحظات معدودة، لتقدم لنا تجربة قراءة غنية ومؤثرة.

القصة القصيرة هي فنٌ أدبي فريد يمتاز بقدرته على اختزال اللحظات والتجارب الإنسانية في نصوص مكثفة ومعبرة. إنها تقدم لنا "لحظة اختزلت في لحظات" عبر قدرتها على تصوير أعماق النفس البشرية والأحداث الحياتية في إطار قصير، مما يترك أثرًا دائمًا في ذهن القارئ. إن فهمنا وتقديرنا لهذا النوع الأدبي يمكننا من التفاعل معه بشكل أعمق والاستمتاع بجمالياته الفنية والفكرية.

م. قصير (2024/06/21)

طفل الدم

كم أحبّ أنني قادرة على المجيء هنا؛ هذا المكان بمثابة ملاذ لي بسببك أنت، والآن، انظري إلى نفسك، لا تعتنين بها جيدًا.

ابتدأت ليلة طفولتي الأخيرة بزيارة إلى بيتنا. أعطتنا أخت تيجاتوي T'Gatoi's بيضتين عقيمتين؛ واحدة لأمّي وأخي وأخواتي، وأصرت أن آكل الأخرى وحدي. لم تكن هناك مشكلة، إذ كان هناك ما يكفي ليشعر الجميع بالرضا إلى حد كبير. لم تُقبل أمِّي على شيءٍ من ذلك، بل جلست بعيدًا؛ تراقبنا هائمين حالمين دونها، ولقد كنت نصب عينيها معظم الوقت.

استرخيت على المنطقة التحتية لتيجاتوي، وهو جزء طويل منها ومُخمل، وجعلت أمص بيضتي بين حين وآخر، وأتساءل عن السبب الذي من أجله امتنعت أمي عن متعة كهذه؛ لا تضرّنا في شيء، بل سيكف اللون الرمادي عن شعرها إن روحت عن نفسها من وقت لآخر؛ والبيض قبل أي شيء يطيل الحياة، ويغمر بالنشاط. لم يرد أبي البيض طول حياته، لذا عاش حياته ضعفَين وأكثر مما ينبغي، وعندما دنا الموت منه، وصار يتهادى بالكاد يحمل نفسه؛ تزوج أمي وأنجب منها أولادًا أربعة.

بدت أمي متسامحة والعمر يكتنفها قبل أوانه. رأيتها تشيح بأنظارها بعيدًا عني عندما كانت أطراف تيجاتوي تضمني إليها أكثر. لقد أحبت تيجاتوي الدفء في أجسادنا، فكانت تجني فوائده كلما استطاعت. عندما كنت صغيرًا، وأمكث وقتًا أطول في البيت؛ اعتادت أمي على تكرار محاولاتها إخباري عن الطريقة المثلى في التعامل مع تيجاتوي؛ وكيف ينبغي علي أن أحترمها وأكون لها مطيعًا ما بقيت، إذ كانت ذاتَ منصب رسميّ في حكومة التلِيكيين، ومسؤولة عن المحميّة؛ ومن هنا جاءت أهميتها البالغة بين أبناء جنسها، لتعاملها المباشر مع أهل الأرض. «لقد كان شرفًا عظيمًا» كما تقول أمي أن يتفضل علينا شخص كهذا باختيارنا منضما إلى العائلة. كم كانت أمي جادة وحازمة إلى حد بعيد وهي تطلق كذبتها تلك.

لم أدر سببًا لهذا الكذب، بل لم أكن أعرف ماهيّة ما تكذب بشأنه! لقد كان شرفًا عظيمًا أن تنضمّ تيجاتوي إلى العائلة، لكن لا يكاد يكون الأمر جديدًا حقًّا، إذ كانت أمي وتيجاتوي صديقتَين حياةَ أمي كلها، وما كان الموضوع مثيرًا لاهتمام تيجاتوي؛ أن تشرفنا بانضمامها إلى بيت تعتبره بيتها الثاني أصلًا. ببساطة، دخلت بيتنا يوما، وتسلّقت إحدى أرائكها الخاصّة، وقامت بمناداتي لإبقائها دافئة، وكان من المستحيل بمكانٍ أن أعاملها برسميّة بينما أستلقي فوقها وأنا أسمعها تشتكي كالعادةِ من نحافة جسدي الشديدة.

قالت هذه المرة: «أنت أفضل» وهي تتفحصني بأطرافها الستة أو السبعة. «أخيرًا، صرت تكتسب وزنًا، النحافة خطيرة»، استحال تفحصها شيئًا فشيئًا سلسلة من المداعبات المتواترة، وبحدة قالت أمي: «لا يزال نحيفًا للغاية».

استطالت تيجاتوي برأسها بعيدًا عن جسدها مترًا ربما، وظهرت على أريكتها وكأنّها جالسة. ورمقت أمّي بعينيها، فانتأت عنها بوجهها الذي بدا مجعدًا وعجوزًا.

- لين، كم أودّ لو تأخذين ما تبقى من بيضة جان؟
- قالت أمّي:

إنّ البيض للأولاد فحسب.

إنه للعائلة، خذيه من فضلك.

وبطاعة عمياء، أخذت أمي ما تبقى من بيضتي ووضعتها في فمها. لم يكن قد تبقى منها سوى بضع قطرات في تلك القشرة المرنة المنكمشة الآن، لكنها قامت باستخراج ما بقي منها سائلًا، ومن ثم ابتلعته، وبالتدريج بدأت تجاعيد التوتر تتلاشى عن وجهها بعد دقائق قليلة.

- همستْ أمي:

لقد كان لذيذًا، أنسَى أحيانًا هذا المذاق الشهي.

- قالت تيجاتوي:

ينبغي أن تتناولي المزيد، لماذا أنت في عجلةٍ من أمركِ لتصيري عجوزًا.

لم تُحِرْ أمّي جوابًا.

- قالتْ تيجاتوي:

كم أحبّ أنني قادرة على المجيء هنا؛ هذا المكان بمثابة ملاذ لي بسببك أنت، والآن، انظري إلى نفسك، لا تعتنين بها جيدًا.

كانت تيجاتوي ملاحقة في الخارج، إذ أراد شعبها استباحة المزيد منا. لقد وقفت هي وفصيلها السياسي حدًّا فاصلًا بيننا وبين تلك الحشود التي لم تفهم السبب وراء وضعنا في محميّة، فلماذا ينعدم السبيل إلى محاكمة الأرضيّين، أو تطويعهم، أو أن يتاحوا لهم على الأقلّ بصورة من الصور، ولعلهم فهموا، لكنهم لا يلقون لهذا الفهم بالًا وهم قابعون في هذا اليأس. قامت تيجاتوي بتوزيعنا وبيعنا إلى أثرياء القوم وأصحاب النفوذ من أجل دعمهم سياسيًّا، وهكذا ألفينا أنفسنا ضرورات، ورموزًا لها مقام رفيع، وشعبًا مستقلًّا. كما قامت بالإشراف على انضمام العائلات، والقضاء على بقايا النظام السابق، إذ كانوا يسعون إلى منابذة الأرضيين وعائلاتهم؛ سعيًا في إرضاء التليكيين. لقد عشت معها في الخارج، وعاينت هذا اليأس المطل من عيون بعضهم وهم يتلقفونني بالأبصار. ما كان يخيفني بعض الشيء؛ أن كانت هي وحدها من تقف حائلًا بيننا وبين هذا اليأس الذي يمتلك قدرة ابتلاعنا عن آخرنا. لقد كانت أمّي تنظر إليها أحيانًا وهي تقول لي: «اعتن بها جيدًا»، ولعلّي أتذكر معاينتها ما قد عاينت في الخارج.

قامت تيجاتوي لتوها باستخدام أربعة من أطرافها لتدفعني عنها بعيدًا على الأرض؛ قائلة: «اذهب يا جان، واجلس مع أخواتك، واستمتع بوقتك دون ارتباط بواجب، لقد تناولت معظم البيضة. لين، تعالي هنا، وأدفئيني». اعترى أمي تردد ما لسبب أجهله تمامًا، فمن ذكرياتي القديمة جدًّا لها أن كانت تتمدد مستلقية بجوار تيجاتوي؛ تتحدّث معها في أمور لا أفهمها بينما ترفعني عن الأرض ضاحكةً لتجلسني على أحد تقاطيعها، ومن ثم تأكل حصتها من البيض. أتساءل: متى توقفت عن ذلك، ولماذا؟

لم يمر طويل وقت إلا واستلقت أمي بجانبها بينما تجتذبها أطراف جانب تيجاتوي الأيسر؛ قابضة عليها، وممسكة بها دون إحكام، ولكن بصورة آمنة. كم كنت أجد هيئة الاستلقاء تلك مطمئنة لي للغاية، وإذا استثنينا أختي الكبرى، فإنه لم يرتح أحد لذلك غيرنا، إذ كانوا يقولون إنهم يشعرون بكونهم مأسورين في قفص وهم في هذا الحال.

قصدت تيجاتوي وضع أمي في قفصها ذلك، وبمجرّد أن أحكمت وثاقها، قالت: «لم تتناولي ما يكفي من البيض يا لين. كان ينبغي عليك أن تأخذيها عندما مُررت إليك؛ إنك في حاجة بالغة إليها الآن». تحرّك ذيل تيجاتوي مرة أخرى بصورة خاطفة كالسوطِ، درجة أنه لا يمكن أن ألاحظ ذلك ما لم أكن أمعنُ إليهما النظر. أودت لدغتها بقطرة دم واحدة من ساقِ أمي العارية.

بكت أمي؛ من هول الفجأة ربما، فاللسعة نفسها لا تؤلم. تنهدت بعد ذلك، واسترخى جسدها كما رأيت. وفي وهن، انتقلت إلى وضعية أفضل داخل القفص المصنوع بأطراف تيجاتوي، ثم تساءلت: «لماذا فعلت هذا بي؟» بصوت ناعس.

- لم أستطع أن أشاهدك تعانين في جلوسك أكثر من ذلك.

تمكنت أمي من هز كتفيها بإيماءةٍ صغيرة، وقالت:

- غدًا!
- نعم، في الغد تستأنفين معاناتك إذا كان ذلك ضروريًا، أمّا الآن، فاسترخي هنا، وأدفئيني، ودعيني أخفف عنك بعض الشيء.

قالت أمي بغتة:

- إنّه لا يزال ملكي، وأنت تعرفين ذلك.
- لا أحد يمكنه أن يشتريه مني كائنًا من كان!

انتبهت أمّي إلى أنه ليس مسموحًا لها أنْ تتطرّق إلى مثل هذه المواضيع، لكنَّ تيجاتوي صدقت على كلامها، وقالت مداعبة إياها:

- لا أحد.
- هل تعتقدين أنني أفكر في بيعه مقابل البيض؟ طول الحياة؟ ابني أنا؟

قالت تيجاتوي وهي تربت على كتفيها، وتمسح على شعرها الطويل الذي علاه الشيب:

- لن يُباع بأي ثمن كان.

كم كنت أود أن ألمس أمي في هذه اللحظة بالذات وأن أشاركها إياها. كانت لتأخذ بيدي إذا لمستها الآن، ولربما ابتسمت وقالت كلامًا يعلق بذهني أبدًا طويلًا إذا ما تحررتْ من أسر البيض واللدغ! لكنها في الغد استعادت كل ذلك في ذاكرتها على أنه مهانة، ولا أريد أن أكون مشاركا في ذكرى هذه المهانة أبدًا. أفضل ما يمكن قوله هنا فحسب إنها أحبتني في ظلال كل هذا الواجب، والافتخار، والألم.

قالت تيجاتوي:

- شوان هوا Xuan Hoa، اخلعي حذاءَكِ، بعد قليلٍ سألدغُهَا مرةً أخرى، لتتمكّن من النوم.

أطاعتها أختي الكبرى، وهي واقفة تترنح من السكر. وعندما أنهت ما يجب عليها، جلست بجانبي آخذة بيدي؛ لقد كنا ـ أنا وهي ـ روحًا واحدة في جسدَين. ألقت أمي برأسها على تيجاتوي، واستقرت في جانبها التحتي. حاولت النّظر إلى وجهها الدائريّ العريض من تلك الزاوية المستحيلة، وقالت:

- هل ستقومين بلدغي مرة أخرى؟
- نعم، لين Lien.
- إذن سأنام حتى ظهر الغد.
- جيد، أنت تحتاجين ذلك، متى كانت آخر مرة نمت فيها؟

أطلقت أمي صوتًا غير مفهوم يشي بالانزعاج، وتمتمت:

- لقد كان ينبغي علي أن أدعسك عندما كنت صغيرة الحجم بما يكفي لذلك.

لم يكن كلامها الأخير سوى مزحة بينهما، إذ يمكن القول ـ بوجه من الوجوه ـ إنهما نشآ معًا، ولم تكن تيجاتوي مدة حياة أمي كلها صغيرة حجمًا حد الكفاية ليقوم أي أرضي بدعسها. لقد كانت أكبر من أمي ثلاث مرات وهي في عمرها الحالي، وكانت لا تزال في شبابها السنة التي تموت فيها. التقيا وتيجاتوي تمر بنوع من المراهقة التي تتغير فيها بيولوجيًّا بصورة سريعة، ولم تكن أمّي سوى طفلة آنذاك، لكن لم يمر طويل وقت إلا وتجاذبا أطراف المحبة على قدر سواء، ولم يحظ كل واحد منهما بصديق كالآخر أبدًا.

وأزيدكم من الشعر بيتًا: أن تيجاتوي هي التي عرفت أمي بالرجل الذي سيصبح أبي فيما بعد. في الحقيقة، عاش والداي في هناء رغم تفاوت أعمارهما. تزوجا في الوقت الذي كانت تيجاتوي فيه منشغلة بأعمال عائلتها السياسية. لم يريا بعضهما البعض في هذه الأحايين إلا قليلًا، لكنها وقبل مولد أختي الكبرى، وعدتها أمي أن تهبها واحدًا من أولادها، إذ كان لزامًا عليها أن تهب أحد أبنائها، ففضلت بالطبع أن

تعطي تيجاتوي بدلا من التورط مع شخص آخر غريب.

مرت سنوات؛ ارتحلت فيها تيجاتوي وازداد نفوذها بالقدر الذي صارت فيه المحمية تحت تصرفها التام، وفي هذه الأثناء عادت إلى أمي لتجني ثمار ما رأته مكافأة لها على عملها الشاق. نالت أختي الكبرى إعجابها سريعًا وودت لو يتم اختيارها، لكن أمي توصلت معها ومعي من بعد إلى اتفاق نال استحسانها؛ وهو فكرة اختيار طفل رضيع لتتم معايشته ومشاركته في جميع مراحله وأطواره. أخبروني أنني كنت أول من احتضنته تيجاتوي في قفصها المصنوع من أطرافها العديدة مدة ثلاث دقائق فحسب بعد مولدي مباشرة. ولم تمر أيام قلائل إلا وكان الوقت قد حان لأعرف مذاق البيض للمرة الأولى. عندما كان يسألني الأرضيون عنها؛ كنت أخبرهم أنه لا يعتريني منها خوف قط، وكنت أقوم بالأمر نفسه مع أهل تليك إذا ما رشحت لهم تيجاتوي أرضيًّا يافعًا ليخبرهم بذلك، إلا أنهم كانوا يطلبون فتى بالغًا بجهل وقلق شديد بدلا مني. وحتى أخي الذي نشأ بصورة ما يعتريه خوف وتخوين تجاه أهل تليك، ربما ينتقل بسلاسة إلى حد كبير للعيش ضمن واحدة من عائلاتهم إذا ما تم اختياره في وقت مبكر كفاية؛ ما أعتبره أحيانًا أمرًا حسنًا في سبيل سعادته، إذ أنظر إليه مستلقيًا على الأرض في ناحية من أنحاء الغرفة، مفتوحة عيناه وهي تلمع حالمًا بالبيض في أوهامه، فبغض النظر عن شعوره تجاه أهل تليك إلا أنه كان لا ينفك عن طلب حصته من البيض.

قالت تيجاتوي بغتة:

- لين، قومي من فضلك!

قالت أمي مستنكرة:

- أقوم؟ ظننت أني سأغيب في النوم.
- تنامين لاحقًا، هناك ما يدعو للريبة في الخارج!

ينفك أسر القفص دون تمهيد عن أمي، وهي تقول:

- ماذا؟
- قومي يا لين!

تعرفت أمي على تلك النبرة من الصوت، فنهضت واقفة في وقت مناسب لتتجنب إلقاءها على الأرض، وهنا انسلت تيجاتوي بجسدها البالغ أمتارًا ثلاثة عن أريكتها ناحية الباب بكلّ ما تملكه من سرعة. كان لديها عظام، وضلوع، وعمود فقري متطاول، وجمجمة، وأربع مجموعات من عظام الأطراف لكل تقطيع من جسدها، لكنها عندما تحركت بهذه الصورة؛ وهي تلتوي، وتتساقط بنفسها بتحكم هبوطي بارع، لتنحط زاحفة على الأرض؛ بدت رخوة دون عظام، وكأنها كائن مائي سائل، شيء يسبح في الهواء الذي استحال معها كالماء. كم أحببت مشاهدتها وهي تمور في حركتها.

تركت أختي، وجعلت ألاحقها وهي متجهة نحو الباب، رغم أنني كنت بالكاد أستقر على قدمي. ألم يكن من الأفضل لك البقاء حالمًا، ألم يكن من الأفضل لك العثور على فتاة تشاركها أحلام اليقظة؟ وبالعودة إلى أهل تليك؛ إنهم لا ينظرون إلينا إلّا على أنّنا مجموعة من الحيوانات الكبيرة ذات الدم الدافئ، والتي تمنحهم الراحة، لذا لم يجدوا بدًّا من تكديسنا معًا، رجالًا ونساء، ليطعموننا البيض فحسب؛ وهكذا يمكنهم التأكد أن يأتي جيل آخر من هذه الحيوانات الأرضيّة، ولا تهم بعد ذلك الطريقة التي حاولنا بها الصمود. إننا محظوظون كثيرًا أنّ هذا الحال لم يدم طويلًا، إذ بعد أجيال قليلة منا ومنهم

أصبحنا بالنسبة إليهم شيئًا أكثر من كوننا حيوانات كبيرة تمنح الراحة والدعة.

قالت تيجاتوي:

- جان، لا تغلق الباب، وأخبر العائلة أن تبقى بعيدًا.

تساءلت:

- ما الأمر؟
- إنه إنتليكي N Tlic.

ارتد جسدي مرتطمًا بالباب، وقلت:

- هنا؟ وحيدًا؟
- أظنه كان يحاول الوصول إلى صندوق الاتصال.

حملت الرجل من أمامي، فاقدًا وعيه، مطويًّا مثل معطف بين بعض أطرافها. بدا الرجل في مقتبل عمره، ولربما كان في عمر أخي، لكنه كان أنحف مما ينبغي؛ تلك النحافة التي تدعوها تيجاتوي بالخطيرة.

- جان Gan، اذهب إلى صندوق الاتّصال.

طرحت تيجاتوي الرجل أرضًا، وبدأت في خلع ملابسه وتعريته تمامًا، أما أنا، فبقيت ساكنًا لا أتحرك. وبعد دقيقة، لم تفعل غير أنها رمقتني بعينيها! لم يكن وجومها المفاجئ إلا علامة على انعدام الصبر ونفاده عن آخره. أخبرتها:

- أرسلي كوي Qui، سأبقى معك، لعلي أساعد هنا.

أطلقت تيجاتوي المجال لأطرافها مرة أخرى؛ فرفعت الرجل وخلعت قميصه عن رأسه. قالت:

- لا ينبغي عليك أن ترى هذا، سيكون صعبًا عليك، ولا يمكنني مساعدة هذا الرجل بالطريقة التي يستطيعها أهله التليكيون.

- أعرف هذا، ومع ذلك، عليك إرسال كوي؛ إنه لن يرغب في التعاون هنا، ولن يقدم أي مساعدة حقيقية، وعلى الأقل، أنا أرغب في المحاولة.

نظرت إلى أخي الذي كان أكبر عمرًا وحجمًا، وأقوى، وبالتأكيد كان الأقدر على تقديم المساعدة في مثل هذا الموقف، لكنة كان جالسًا يترقب، مستندًا على حائط، يأكل الرجل المُستلقي بعينيه في خوف واشمئزاز صارخ؛ ما جعلها لا تشك لحظة في كونه عديم الفائدة فعلًا، لذا أمرته بالذهاب. لم يناقش كوي الأمر، بل انتفض قائمًا يتهادى بعض الشيء، ثم استقر نهاية في خوف والتزام صارم. جعلت تيجاتوي تنظر في الطوق الذي حول معصمه بينما أتحسس طوقي بنوع من التعاطف، ثم قالت لِكوي:

- هذا الرجل اسمه برام لوماس Bram Lomas، وهو في حاجة إلى تيكوتجيف تيه T'Khotgif Teh حالًا، هل تسمعني؟

جعل أخي يردد: «برام لوماس، تيكوتجيف تيه... حسنًا، أنا ذاهب»، ثم التف من حول لوماس ليجري خارجًا من الباب.

بدأ توماس في استعادة وعيِه مرة أخرى. جعل يئن بداية ثم قبض على زوج من أطراف تيجاتوي وهو يتشنج. استيقظت أختي أخيرًا من سكرها العميق بالبيض، وجعلت تقترب لتلقي نظرة عليه، حتى انتبهت أمي إليها فقامت بسحبها إلى الوراء.

خلعت تيجاتوي عن الرجل حذاءه، ثم بنطاله، كل هذا وهي تاركة طرفَين من أطرافها يتوليان أمر السيطرة عليه. أدت أطرافها المهمة ببراعة على حد سواء إلا تلك الأطراف السفلية القليلة. قالت تيجاتوي:

- جان، دع عنك التردد كله فيما سأطلبه منك هذه المرة.

اعتدلت في قامتي وقلت:

- ما المطلوب مني؟
- اذهب إلى الخارج، واذبح حيوانًا لا يقل حجمه عن نصف حجمك.
- أذبح؟ لكني لم أقم أبدًا بـ....

دفعتني بقوة ناحية الباب، وكان ذيلها سلاحًا نافذًا سواء أظهرت إبرة اللدغ أم لم تظهرها.

تحاملت على نفسي، وشعرت بالحماقة أن تجاهلت تحذيرها الأولي لي، وانصرفت إلى المطبخ لعلي أجد ما يمكنني به قتل شيء ما؛ سكينة مثلًا أو فأسًا. كانت أمي تربي عددًا قليلًا من الحيوانات الأرضيّة من أجل لحومها أو فرائها، لكن تيجاتوي تريد حيوانًا محليًّا على الأرجح، ولربّما كان حيوانا كالآكتي Achti، فأحجام بعض هذه الحيوانات قد تكون مناسبة على الرغم من كونها تمتلك أسنانًا أكثر ـ ثلاثة أضعاف ما لديّ ـ ويعشقون تفعيلها. باستطاعة أمّي هُوا وأخي كوي أن يقتلا هذه الحيوانات باستخدام السكاكين، لكني لم أقتل أحدها أبدًا، بل لم أذبح أي حيوان على الإطلاق. لقد كنت أقضي وقتي كله مع تيجاتوي بينما كان أخي وأخواتي يتعلمون هذه الشئون وغيرها من أمور العائلة. لقد كانت تيجاتوي محقة؛ كان ينبغي علي أن أذهب إلى صندوق الاتصال، على الأقل أستطيع أن أفعل ذلك.

اذهبت إلى غرفة الخزانة عند الزاوية، حيث بيت أمي الكبير الذي حافظت عليه، وحيث أدوات الحديقة. هناك خلف الخزانة؛ أنبوب لحمل مياه صرف المطبخ، لكنه لم يعُدْ كذلك، إذ قام أبي بتحويل مسار مياه الصّرف أدنى هذا الأنبوب منذ زمن بعيد؛ قبل ولادتي حتى. وصار بالإمكان تدويره بحيث ينزلق بعضه على بعض؛ ما يتيح إخفاء بندقيّة داخله. لم تكن هذه بندقيتنا الوحيدة، لكنها كانت أيسر ما يمكننا الوصول إليها سريعًا. كان علي استخدامها إذا ما أردت إطلاق الرصاص على إحدى حيوانات الآكتي الكبيرة كفاية، لكنّ احتمال أن تصادرها تيجاتوي كبير، إذ حيازة الأسلحة الناريّة محرم في محميّة البشر. وقعت حوادث مؤسفة في المحمية فور تأسيسها، إذ أطلق الأرضيون النار على بعض التليكيين والإنتليكيين، وكان هذا قبل أن يبدأ نظام الانضمام إلى العائلات التليكية، وقبل أن يكون حفظ السّلام مطلبًا شخصيًّا للجميع هنا. لم يطلق بشري النار أبدًا على تليكي مدة حياتي أو مدة حياة أمّي، لكن قانون الحظر لا يزال ساريًا من أجل حمايتنا كما يُقال لنا، إذ تواترت قصص مروعة عن إبادة عائلات أرضيّة عن آخرها خلال عصر الاغتيالات انتقامًا وثأرًا.

خرجت ببندقيّتي إلى الأقفاص وأطلقت النار على أكبر آكتي وقعت عليه عيني. وكان ذكرًا مليحًا ولودًا. بالطبع لم تكن أمي لتحب أن يقع ناظرها عليه وأنا أسحبه إلى الداخل، لكنه كان ذا حجم مناسب جداًّ، وكنت في عجلة من أمري.

حملت الآكتي بطول جثته ودفئها فوق كتفي، وكم كنت سعيداً أن بعض ما اكتسبت من وزن كان عبارة عن عضلاتٍ مكنتني من رفعه وأخذه إلى المطبخ حيث أعدت البندقية إلى مخبئها. وإذا لاحظت تيجاتوي آثار الرصاص في جسد الآكتي المجروح، وطالبتني بتسليم البندقيّة، سأسلمها إياها عن طيب خاطر، وإلا سأبقيها حيث أرادها أبي.

تحولت إلى الآكتي لآخذه إلى تيجاتوي، لكن التردد اعتراني لوهلة! وقفت قبالة الباب المغلق متسائلًا عن سبب الخوف الذي غمرني فجأة. كنت أعرف ما سيجري؛ لم أرَ ذلك من قبل، لكن تيجاتوي كانت حريصة على إطلاعي على بعض المخططات والرسومات بصورة تأكدت معها أنني أصبحت أعرف الحقيقة بمجرد أن أصبحت كبيرًا بما يكفي لأن أفهم.

لم أكن أرغب في ولوج غرفة الخزانة تلك، بل أضعت بعضًا من الوقت وأنا أختار سكينًا من ذلك الصندوق الخشبيّ المزخرف الذي احتفظت أمي بما في داخله، بل وقلت في نفسي لعل تيجاتوي تحتاج إلى سكين منه للتعامل مع آكتي كهذا، إذ كان ذا ثقل وقسوة وفراء متكاثر. نادت تيجاتوي بصوت لاذع ومُلح: «جان»! ابتعلت ريقي وكدت أغص، لم أكن أتخيل أبدًا أن حركة مفردة من القدم قد تكون ثقيلة هكذا كالجبال. كم شعرت حينها بالعار عندما أدركت أني أرتجف رعدة كذلك؛ هذا الإدراك دفعني أخيرًا لعبور الباب الفاصل بيني وبينها.

وضعت الآكتي على مقربة من تيجاتوي، ورأيت لوماس غائبًا عن الوعي مرة أخرى. لم يكن هناك أحد في الغرفة غيري أنا ولوماس وتيجاتوي؛ لعله أُرسلت أمي وأخواتي إلى الخارج كي لا يضطروا إلى مشاهدة ما يحدث، حقًّا، كم اعتراني الحسد تجاههم، لكن أمي عادت إلى الغرفة بينما كانت تيجاتوي تقبض على الآكتي متجاهلة تمامًا السكين الذي عرضته عليها، مستعلنة بمخالبها المتكاثرة على أطرافها، وقامت بقطعه طوليًّا من حلقه وحتى فتحة شرجه، ثم نظرت إلي بعينها الصفراء الجازمة، قائلة: «اقبض على كتفي هذا الرجل يا جان».

حدقت بذعر في وجه لوماس، وأدركت أنني لا أرغب في لمسه على الإطلاق، فضلًا عن الإمساك به كما تريد، فلن يشبه الأمر بالتأكيد إطلاق رصاص على حيوان ما، ولن يماثله بالطبع في سرعة التمام والعطف بالموت، وكم كنت أرجو بصورة ليست نهائية، لكن لم يكن هناك شيء أردته حينها أقل من أن أكون جزءًا من هذا الحدث.

أقدمت أمي علينا وهي تقول: «جان، أمسك بجانبه الأيمن، وأنا أمسك بجانبه الأيسر». أعلم أنه إذا استحكم الأمر، فإنه سيطرحها جانبًا من قبل أن يدرك حتى أنه فعل ذلك! لقد كانت أمي ضئيلة الحجم، وكم سمعتها تتساءل مرات عديدة بصوت مرتفع كيف أنها أنجبت أبناء ـ كما تقول ـ «جسيمين» في هذه الصورة من الضخامة. قلت لها وهي تحاول الإمساك بكتفَي الرجل: «لا عليك يا أمي، سأفعل ذلك وحدي». انصرفت، لكنها جعلت تحوم في الأجواء، فقلت: «أمي، لا تقلقي، لن أخذلك أبدًا، وليس عليك البقاء هنا لتشاهدي شيئًا». نظرت إلي والشك يتلبسها ولامست وجهي بملاطفة نادرة، ثم ارتدت أخيرًا عائدة إلى غرفة نومها. تدانت تيجاتوي برأسها في ارتياح بالغ وهي تقول: «شكرًا يا جان»؛ قالتها بلطف شديد يليق بأرضي أكثر من تليكي، ثم أردفت: «هذه المرأة... إنها لا تكف عن إيجاد مسالك جديدة لتكريس معاناتها الخاصة».

ابتدأ لوماس في الهمهمة بألم، مصدرًا أصواتًا غاصة؛ الحدّ الذي جعلني أرجو لو ظل مقيمًا في لاوعيِه. اقتربت تيجاتوي بوجهها كثيرًا من وجهه حتى يستطيع الانتباه إليها. قالت له:

- لقد قمت بلدغك بالقدر الذي أقدر عليه الآن، وعندما ينتهي كلّ هذا، سأقوم بلدغك مرات أخرى لأجعلك تنام نومًا لا تتأذى بعده أبدًا.

توسل الرجل قائلًا:

- لا، من فضلك، انتظري...
- برام، ليس هناك وقت لهذا، سأقوم بلدغك بمجرد انتهائنا، وعندما تصل تيكوتجيف، ستمنحك البيض ليساعدك على الشفاء سريعًا، كل شيء سينتهي عن قريب.

صرخ الرجل وهو يتلوى بين يدي:

- تيكوتجيف!
- قريبًا يا برام.

رمقتني تيجاتوي بنظرها، ثم غرست مخلبها في جوفه، وسط بطنه جهة اليمين، أدنى ضلعه الأيسر، فعلت ذلك بتأن شديد. كانت هناك حركة نابضة في جانبه الأيمن؛ بانت في نبضاتٍ خاملة تتكشف بصورة متقطعة ينتفض بها لحمه البنيّ؛ ما أدى إلىٍ إحداث تجويف هنا، ونتوء هناك، تواترت نبضاته مرارًا وتكرارًا بصورة جعلتني أتسمع إيقاع تنغيمها، وأعرف تمامًا أين تتخلق النبضة التالية.

تخشب جسد لوماس بكامله ومخالب تيجاتوي تعتمل فيه رغم أنها لم تُعمله فيه عن آخره، كما أوثقته بإحكام عن طريق التفاف ذَنَبها الطويل حول ساقيه. لعله يُفلت من قبضتي، لكنه لا يُفلت من قبضتها أبدًا! بكى لوماس دون جدوى وهي تُصفد يديه مستخدمة بنطاله، ثم رفعت يديه فوق رأسه حتى يمكنني أن أجثو بركبتي على الملابس التي بينها وبينه، لأضع كل شيء في مكانه المطلوب. كورت تيجاتوي قميصه، وأقحمته في فمه ليعض عليه، ومن ثم ابتدأت في شقه وفتحه.

ارتج جسده مرتعدًا مع أول جرح، وكاد يمزق نفسه ويتخلص من قبضتي. هذا الصوت الذي أصدره... لم أسمع أبدًا في حياتي كلها أصواتًا كهذه تصدر عن أي إنسان! بدت تيجاتوي منهمكة، لا تعير انتباهًا لكل هذا، إذ كانت تطيل الجرح وتعمل على تعميقه، وبين الحين والآخر تتوقف بعض الوقت عن لعق الدم وبصقه. بدأت أوعيته الدموية في الانقباض، والاستجابة لكيمياء لعابها، وبدأ النزيف في التباطؤ.

شعرت أنني أساعد في تعذيبه، أساعدها في تحقيق التهامه. كنت أعرف أنني على وشك التقيؤ، ولم أعرف لماذا لم أستفرغ ما في معدتي حتى هذه اللحظة؟ حقًّا لم أستطع الاستمرار في هذا الأمر حتى تنتهي.

وجدت اليرقة الأولى أخيرًا. كانت ممتلئة، ذات لون أحمر داكن يمتزج ودمه من داخلها وخارجها. كانت قد انتهت لتوها من التهام كيس بيضتها الخارجية، لكنها كما يظهر لم تبتدئ في التهام مُضيفها. إنها في هذه المرحلة لا تملك التمييز، إذ تأكل ما يقع أمامها من لحم عدا أمّها بالطبع. دعونا من كل هذا! لا بد أنها قد بدأت في إفراز سمومها عبر جسد لوماس؛ تلك التي قامت بإمراضه وتحذيره، وكانت بالتدريج ستبدأ في التهامه والتغذي عليه، وبحلول الوقت، كانت ستجد طريقها خارج جسد لوماس عن طريق التهامه من الداخل من أجل خلاصها وخروجها، وسيكون لوماس ميتًا أو في حالة احتضار؛ غير قادر على الثأر لنفسه من هذا الشيء الذي كان يقتله ويعذبه. كانت هناك دائمًا مدة من الزمن ـ بين مرض المُضيف والوقت الذي تبدأ فيه اليرقات بالتهامه ـ تسمح بأخذ الحق.

التقطت تيجاتوي اليرقة وهي تتلوى بعناية بالغة، ثم نظرت إليها متجاهلة بصورة ما تأوهات لوماس المريعة. غاب لوماس عن الوعي بغتة؛ دَنت إليه تيجاتوي بعينيها وقالت: «هذا جيد»، ثم أردفت: «كم أود أيها الأرضيون لو تملكون قدرة الغياب عن الوعي بمحض إرادتكم». إنها لا تشعر بشيءٍ من هذا الألم! وهذا الشيء الذي أخرجته؛ في مرحلته تلك، كان دون أطراف وعظم، ويبلغ طوله على الأرجح خمسة عشر سنتيمترًا، أمّا سُمكه فلربما سنتيمتران، كائنًا لزجًا ممتزجًا بالدم، يشبه دودةً من الحجم الكبير. وضعته تيجاتوي باطن معدة الآكتي، لتبدأ على الفور في الحفر والتنقيب؛ ستبقى هناك تأكل وتلتهم ما دام هناك ما يمكن أكله والتهامه من هذا الجسد.

جعلت تُفتش في جسد لوماس لتجد يرقتَين أخريَين؛ الأولى صغيرة الحجم، والثانية مفعمة بالحياة والحركة. «ذكر»! هكذا صرخت تيجاتوي وهي مُفعمة سعادةً. ستنقضي حياة هذا الذكر قبل انقضاء حياتي عن طريق انمساخه المبكر وإفساده تمزيقًا لكل شيء قد يبقيه على قيد الحياة، سيموت حتى قبل أن تنموَ أطراف أختَيه. لقد كان الوحيد الذي يبذل جهدًا حقيقيًّا في العض والقضم والتغذي عندما وضعته تيجاتوي باطن الآكتي.

جعلت الديدان الشاحبة تبدأ في الظهور طافحة على جسد لوماس. أغلقت عيني؛ كان الأمر أشد سوءًا من أن تقع عينك على شيء هالك، مُتعفن، يمتلئ جسده باليرقات الحيوانية الصغيرة. لقد كان ما رأيت أخبث إلى حد بعيد من أي رسم واصف أو تخطيط مُمكن.

- مرحى، هناك مزيد!

قالت تيجاتوي ذلك، وهي تنتزع يرقتَين طويلتَين، بادنتَين، ثم نظرت إلي:

- ربما عليك أن تقتل حيوانًا آخر يا جان، كل شيء تعتريه الحياة وهي داخلكم أيها الأرضيون.

لقد قيل لي حياتي كلها أن الخير كله فيما وصل إليه الأرضيّون والتليكيون من اتفاق معًا؛ هذا النوع من الولادة بالطبع. آمنت بما قيل لي حتى هذه اللحظة! كنت أعرف أن الولادة ينبغي أن تكون عمليّة مؤلمة ودموية مهما كلف الأمر، لكن ما عاينت كان مختلفًا؛ أخبث مما علمت وأسوأ، ولم أكن على استعداد لرؤيته؛ ولعلي لن أكون أبدًا، ومع ذلك لم أستطع الكف عن التطلع ، فإغلاق عيني لم يعد يساعد.

وجدت تيجاتوي يرقة لا تزال تأكل كيس بيضتها. كان ما تبقى من الكيس لا يزال متصلًا بوعاء دموي عن طريق أنبوب صغير أو خُطاف أو شيء آخر ربما. كانت تلك هي الطريقة التي ترسو بها اليرقات وتتغذى من خلالها وهي في هذا الطور، ففي البداية تتغذى على الدماء فحسب حتى تشتد وتصبح قادرة على الخروج، وهنا يأكلون أكياس البيض المائعة والمطاطة، ومن ثم يبتدئون في أكل مُضيفيهم.

قامت تيجاتوي بقص كيس البيضة، ثم ارتشفت الدم الخارج عنه. هل أحبت مذاقه؟ هل تموت عادات الطفولة بصعوبة، أم أنها لا تموت على الإطلاق؟ بدت العملية كلها كالجناية، شديدة الغرابة بالنسبة إلي. قالت تيجاتوي: «طفل واحد، أو ربما طفلان يشكلان عائلة جيدة. إننا هذه الأيام نصبح في غاية السعادة إذا وجدنا يرقة أو يرقتَين على قيد الحياة في أجساد الحيوانات المُضيفة»، ثم رمقتني بعينيها وقالت: «اذهب إلى الخارج يا جان، واستفرغ ما في بطنك. اذهب الآن بينما لوماس غائب عن وعيه».

قمت أمشي متهاديًا، بالكاد استطعت القيام. تقيأت جميع ما في بطني تحت الشجرة التي خلف الباب الأمامي، تقيأت كل شيء حتى لم يعد هناك ما يمكن استفراغه. قمت وأنا أرتجف أخيرًا، تنهمر الدموع على وجهي كالوديان. لم أعرف سببًا لبكائي، لكنّي لم أستطع أن أكف نفسي عنه. انتأيت عن البيت بعيدًا فلا يراني أحد على هذا الحال، وكنت في كل مرة أغلق فيها عيني لا أرى إلا هذه الديدان الحمراء وهي تزحف على لحم بشري أشد احمرارًا منها.

رأيت سيارة تقصد بيتنا. ركوب المركبات الدائرة بالمحركات محظور على البشريين إلا فيما يخص بعض المعدات الزراعية المعينة، لذا علمت أنه يجب أن تكون تليكية لوماس في صحبة أخي، وربما معهما طبيب أرضي. مسحت الدمع عن وجهي مستخدمًا قميصي، أجاهد نفسي للسيطرة عليها.

استقرّت السيارة أخيرًا لدينا، وصرخ كوي: «جان، ماذا حدث؟»، ثم انسل من باب سيارةِ التليكية المناسب لهذه المخلوقات، والمنخفض، والدّائريّ، ومن ثمّ انسلّ أرضيّ آخرُ من الباب الآخر ودخل المنزل دون أن يحادثني في شيء. الآن بمساعدة الطبيب، وبعض البيض، يمكن للوماس أن ينجو.

قلت: «تيكوتجيف تيه؟». اندفع سائق السيارة إلى الخارج، رافعًا شطرًا من طولها قدامي فأطلت عليَّ أكثر شحوبًا ممّا ينبغي وأصغر حجمًا من تيجاتوي؛ لعل عملية ولادتها تمت في جسد حيوان غير بشري، فالتليكي المولود عن جسد أرضي يكون في العادة أكبر حجمًا، والإنتاج يكون أكثر عددًا. أخبرتها: «ست يرقات يافعة، ولعلها سبع، كلها على قيد الحياة، من بينها ذكر واحد على الأقل». قالت بحدة: «لوماس؟». كم أحببتها في سؤالها، وفي صوتها القلق عندما سألتني هذا السؤال. آخر كلام منطقي نطق به السائق كان اسمها. أخبرتها أنه على قيد الحياة، ومن ثم اندفعت تجاه البيت دون أن تقول شيئًا آخر. قال أخي وهو يراقبها في ذهابها:

- لقد كانت مريضة جدًّا، وعندما اتصلت بها، كنت أستطيع سماعهم حولها يقولون لها إنها ليست بصحة جيّدة للذهاب حتى وإن كان من أجل لوماس وأولادها.

لم أنبس ببنت شفة؛ وما كان حديثي لتيكوتجيف إلا نوعًا من المجاملة. الآن، لا أريد الكلام مع أي أحد، وكم كنت أرجو لو يذهب إلى الداخل بدافع من الفضول على الأقل، أو لأي سبب آخر.

- أخيرًا، اكتشفت اليوم أكثر مما كنت تريد، صحيح؟

نظرت إليه.

- لا ترمقني بنظرة من نظراتها، لست هي يا جان، لست إلا شيئًا من ممتلكاتها.

نظرة من نظراتِها؟ هل صرت أمتلك تلك القدرة على محاكاة تعبيراتها؟

- ماذا كنت تفعل؟ تتقيأ؟

تنفس الصعداء ثم قال:

- وأخيرًا، تعرف الآن ماهية الشيء الذي تورطت فيه.

انصرفت بعيداً عنه. كانت علاقتنا أكثر حميمية عندما كنا أطفالًا، إذ كان يسمح لي بالتجوال معه في أنحاء البيت، وكانت تيجاتوي تدعه يرافقني أحيانًا عندما كانت تأخذني معها إلى المدينة. لكن كل شيء تغير لما راهق سن البلوغ، ولا أعرف كيف. جعل يتناءى عن طريقها أول الأمر، ثم ابتدأ في الفرار منها حرفيًّا حتى أدرك أن لا «فرار»، لا معنى للفرار هنا في هذه المحمية، ولا معنى له بالطبع خارجها. عندما أدرك هذا الإدراك؛ قام بتكثيف جهوده على أن يأخذ نصيبه من كل بيضة تدخل بيتنا، وعلى النظر إلي بطريقة جعلتني أبغضه؛ ينظر إلي نظرة تقول بوضوح: طالما كنت بخير، سيظل هو في مأمن من أهل تليك.

طلب مني أن أتابعه المشي، ثم قال:

- كيف جرى الأمر حقًّا؟
- لقد قتلت آكتي، وابتدأت اليرقات في التهامه.
- لكن، ليس هذا ما جعلك تخرج مذعورًا من البيت لتستفرغ معدتك؛ ليس بسبب أنهم يأكلون الآكتي.
- كنت... إنني لم أرَ أحدهم مُقطعًا من داخله من قبل.

نطقت بالصدق الذي كان يكفيه حقًّا، ولم أستطع الحديث عن أي شيء آخر؛ لا يمكنني الانبساط في الحديث معه. قال:

- أحقًّا؟!

نظر إلي نظرة ناطقة كأنه يريد أن يقول كلامًا كثيرًا، لكنه آثر الصمت. تماشينا دون وجهةٍ نقصدها هنا، وهناك، وتجاه الأقفاص والحقول.

تساءل كوي: «هل قال أي شيء؟ لوماس، أعني». من غيره يمكن أن يقصد؟! قال: «تيكوتجيف»! اهتز بدنه قائلًا:

- إن استخدمتني كجسد مُضيف لهذه الأشياء، لتكونن آخر من أود الاتصال به!
- ليس لك من سبيل إلا هذا السبيل، فأنت محتاج إلى لدغاتها حتى تُذهِب عنك الألم دون موت اليرقات بداخلك.
- أتظن أني أبالي بموتها؟!

بالطبع لا يبالي! لكن، ماذا عني؟!

ابتلع كوي نفسًا عميقًا ثم قال:

- اللعنة! لقد رأيت ما يفعلونه حقًّا؛ أتظن ما جرى للوماس كان سيئًا؟ إنه لا شيء!

لم أجادله، إنه لا يفهم ما يتكلم فيه. قال:

- رأيتهم يأكلون رجلًا بأم عيني.

التفت إليه مواجهًا:

- أنت كذاب!

قال: «رأيتهم يأكلون رجلًا»، ثم توقف هنيهة ليقول:

- كنت صغيرًا، عائدًا من بيت هارتموند Hartmund ، وبينما أنا في طريق العودة إلى البيت، وفي منتصف الطريق، هنا، رأيت رجلًا وتليكيًا؛ كان الرجل إنتليكيًّا. وكانت التلال تملأ الأنحاء، فوجدت طريقي إلى الاختباء والمراقبة. لم يُجرِ التليكيون عملية استخراج اليرقات من جسد الإنتليكي، إذ لم يجدوا ما يُطعمون به يرقاتهم الصغيرة. لم يستطع الرجل الحراك أبدًا، وانعدمت البيوت من حوله. كان يتلوى من الألم، ويخبر صاحبته أن تُخلصه بالقتل؛ لقد توسل إليها أن تُنهِي ألمه بإنهاء حياته، وأخيرًا حققت مطلبه ذَبحًا؛ حَزت عنقه بضربة خاطفة وبمخلب واحد. رأيت اليرقات تخترق جسده التهامًا إلى خارجه فداخله مرات ومرات؛ وبتواتر مستمر.

أثارت كلماته صورة لوماس في عقلي؛ جسده المَطفول، المُتفقع لحمه. همست:

- لماذا لم تخبرني قبل عن هذا؟

نظر إلي والرعب يأخذه كل مأخذ وكأنه قد نسي أنني أصغي إليه سمعًا.

- لا أعرف.
- بعدها ابتدأتَ في الفرار بعد وقت ليس طويلًا، صحيح؟
- نعم، وياللغباء؛ كنت أفر داخل محمية! أهرب في قفص.

هزت رأسي، وقلت ما كان ينبغي أن أقوله من وقت طويل:

- اطمئن يا كوي، لن تقوم بانتهابك، ليس عليك أن تكون قلقًا.
- بل ستفعل ذلك... إذا حدث أي مكروه لك.
- لا، ستفضل شوان هوا عليك. وهوا... تريد ذلك.

تنعدم هذه الإرادة إذا بقيت هوا في الداخل تراقب ما يحدث للوماس.

قال كوي بمهانة:

- إنهم لا يأخذون الإناث.
- رمقته بنظري وقلت:
- بل يفعلون ذلك أحيانًا. وفي الحقيقة؛ إنهم يفضلون الإناث. حاول أن تتسمع أحاديثهم وهم في الأجواء يتحدثون معًا؛ يقولون إن أجساد الإناث أكثر سمنة؛ ما يحمي اليرقات أكثر ويحافظ عليها، لكنهم عادة ما يستعملون الذكران، ليتركوا مجالًا لإناثنا لإنجاب الأرضيين وتربيتهم.

قال بوجه يتنقّل بين الشعور بالمهانة والمرارة:

- لتوفير جيل تالٍ من الحيوانات المُضيفة.

رددت:

- ليس لهذا فحسب، بل لما هو أكثر من ذلك.
- تعرف؟ كم أودّ أن أعتقد ذلك إذا كانوا سيستخدمون جسدي.

«لما هو أكثر من ذلك»! شعرت أنّي طفل وأنا أقول ذلك؛ حجة غبية.

- هل تظنّ أن تيجاتوي ما زالت تلتقط الديدان من أحشاء هذا المسكين؟ لم يكن من المفترض أن تتمّ العملية على هذا النحو.
- صحيح بالطبع، إذ لم يكن من الواجب رؤية ما يحدث بالداخل؛ هذا كل ما في الأمر. وأيضًا كان ينبغي على التليكية الخاصّة به أن تُجري الأمر بنفسها، حينئذ كان لها أن تخدره سريعًا عن طريق لدغه؛ وبذلك لن تكون العملية بهذا الإيلام، وهكذا تقوم بفتحه والتنقيب داخله عن يرقاتها، وإذا فقدت واحدة، واحدة فقط، فإنها ستسمم جميع جسده، ولتأكلنه عن آخره؛ من الداخل إلى الخارج.

حقيقية، كانت أمي تطلب مني في وقت سابق أن أظهر لكوي بعض الاحترام، فهو أخي الأكبر، لكني كنت أشيح عنها بعيداً. وكان كوي يتبجّح لذلك بطريقته الخاصة. لقد كان في مأمن، ولم أكن. كم كنت أود ضربه، لكني لم أكن أظنني أتحمل رفضه ضربي، لينظر إلي بعدها في امتهان وشفقة.

لم يسمح لي بالابتعاد عنه يومئذ. كان ممشوق القامة، يمشي أمامي متبخترًا؛ ما يُشعِر أنني كنت أتبعه. قال:

- أنا آسف، جان.

جعلت أستحث الخُطى بسقم وغضب.

- انظر، لن يكون الأمر معك بهذا السوء الذي رأيت، فتيجاتوي تحبك؛ إنها ستعتني بك.

توجّهت ناحية البيت كأني أهرب منه. سألني: «ألما تفعل هذا بك؟»، ثم تمادى: «أعني، أنت في سن مناسب جداً للتعشيش هل قامت بـ...». ضربته؛ لم أكن أعرف أنني سأقوم بذلك، لكني أعتقد أني قصدت قتله، ولربما لو لم يكن أكبر مني وأقوى، لأقدمت على ذلك غالبًا. حاول كوي إثنائي، لكنه في النهاية كان مضطرًّا للدفاع عن نفسه، فانهالت علي ضرباته المتتابعة، ولا أذكر أنه طرحني أرضًا، لكن عندما هممت به كان قد ارتحل عني. لقد كان التخلص منه يستحق هذا الألم.

جمعت نفسي، ومشيت الهوينى تجاه البيت، آخره مُظلم، ومطبخه خالٍ عن الكل. نامت أمي وأخواتي، أو تظاهروا بذلك. استقرت نفسي هنالكَ، كان بإمكاني سماع تليكي وأرضي يتجاذبان الحديث في غرفة مجاورة؛ وصلني حديثهم غائمًا، ولم أرغب السعي في تسمعه واستيضاحه. جلست على طاولة لأمي؛ أتلمس الصّمت. الطاولة مصقولة لكنها متآكلة، مُحمَّلة ومتقنة الصّنع؛ ابتدعها أبي من أجل أمي قُبيل وفاته. تداعبني الذكرى وأنا ألهو تحت قدمَيه بينما كان منهمكًا في تصنيعها دون زجري. أراني أتكئ عليها الآن يغلبني الشوق إليه. كان ينبغي أن أنعم معه بحديث. خضع أبي لهذه العمليّة ثلاث مرّات في حياته المُمتدة، احتضن بيض هؤلاء ثلاثة أحايين بجسده المفتوق والمرتوق ثلاث مرات. كيف احتملت ذلك يا أبي؟ أو كيف يحتمل ذلك أي إنسان؟

احتملت نفسي، وأخرجت البندقية من مخبئها، تناولتها وجلست مرة ثانية أحملها بيدي. كانت تحتاج إلى عناية من تنظيف وتزييت قمت به، كما قمت بتعميرها رصاصًا.

- جان؟

أصدرت تيجاتوي نَزْرًا من الطقطقات المتوالية وهي تمشي على تلك الأرض العارية؛ ينقر كل طرف من أطرافها ما يسافلها بتواتر مستمر، وكأنها موجات من النقر الخفيض. تعالت إلي حيث أجلس على الطاولة، رافعة نصف جسدها الأمامي فوق الآخر، مندفعة نحوي. إنها تتحرك أحيانًا بلطف شديد كأنها الماء نفسه في تدفقه. التفّت حول بعضها البعض في ربوة صغيرة كانت منتصف الطاولة، وأعملت في النظر وهي تقول بصوت مُنغم:

- كان ذلك خطأ كبيرًا يا جان، ما كان ينبغي أن ترى هذا، وما كان يجب أن يجري ما جرى على هذا النحو.
- أعرف.
- ستموت تيكوتجيف –تشيكوتجيف Ch'Khotgif الآن– بمرضها. لن تبقى على قيد الحياة طويلًا لتربيَ أطفالها، لكنّ أختها العقيمة ستعتني بهم، وببرام لوماس.

أنثى واحدة ولود وسط جمع قاحل عقيم؛ وهي الخصيبة التي تحافظ على نسل الأسرة. هذه الأخت مدينة للوماس كثيرًا، دينًا لا يمكنها سداده أبدًا.

- هل سيعيش إذن؟
- نعم
- أتساءل إن كان مضطرًا إلى الخضوع لذلك مرة أخرى.
- لا أحد سيطلب منه فعل ذلك مرة أخرى.

نظرت مليًّا في عيونها الصفراء، مُتفكرًا في فداحة ما رأيته وفهمته هناك، والقدر الضئيل الذي كنت أتصوره في عقلي.

- لا أحد يسألنا –نحن البشر– أبدًا؛ أنت لم تسأليني أبدًا.

حركت رأسها بعض الشيء، وقالت:

- ما خطب وجهك يا جان؟
- لا شيء، لا شيء يهم.

ما كانت عيون الإنسان لتلاحظ التورم في وجهي وسط هذا الظلام، إذ كان الضوء الوحيد ضوء الأقمار النافذ عبر شباك الغرفة.

- اصدقني القول؛ هل استعملت بندقية لتقتل الآكتي؟
- نعم.
- وهل تضمر في نفسك استعمالها ضدي؟

أمعنت النظر فيها وضوء القمر يتخللها؛ جسد مُلتفّ ورشيق، ثم قلت:

- تيجاتوي، ما هو مذاق دماء الأرضيين في فمك؟

لم تحر جوابًا. همست:

- ماذا أنتم؟ ماذا نعني نحن إليكم؟

استلقت دون حراك؛ أراحت رأسها على لفائفها العلوية، وقالت بصوت دافئ:

- أنت تعرفني أكثر من أي أحد آخر، لا بد أن تتخذ قرارًا.
- هذا ما حدث لوجهي.
- ماذا؟
- حرضني كوي على اتخاذ قرار ما، لكن الأمر لم يجر على ما يُرام.

حركت البندقية بتؤدة، ووضعت ماسورتها مائلة تحت ذقني، وقلت:

- على كل، ما حدث كان قراري فعلًا.
- ولك مثل هذا.
- لا بدّ من استئذاني يا تيجاتوي.
- استئذانك في حياة أطفالي؟!

كان من المُتوقع أن تقول شيئًا كهذا؛ إنها تجيد التلاعب بمشاعر الكل، تليكيّين كانوا أم أرضيّين، لكني لن أسمح لها هذه المرة.

- لا أريد أن أكون حيوانًا مُضيفًا، لا لك ولا لغيرك.

استغرق الأمر منها وقتًا طويلًا حتى قالت:

- إننا لا نكاد نستخدم أيّ حيوان ليكون مُضيفًا هذه الأيام، وأنت تعرف ذلك.
- أنتم تستعملوننا.
- نعم، نفعل ذلك. ننتظر سنوات طويلة، ونعلمكم، ونضم علائلاتنا إليكم.

اختلجت بانزعاج وقالت:

- أنت تعرف أننا لا نراكم مجموعة من الحيوانات.

حدقت إليها، لكني لم أقل شيئًا. قالت برفق:

- إن الحيوانات التي كنا نستعملها قبل، بدأت في تدمير معظم بيضنا فجأة بعد زرعنا إياها داخلهم؛ حدث هذا قبل أن يصل أسلافك هنا. أنت تعرف هذه الأشياء يا جان، إذ عندما وصل قومك، كنا ما زلنا نفهم معنى أن نكون أصحاء أقوياء. فر أسلافك من وطنهم الأصلي، ومن بين بني نوعهم الذين أعملوا فيهم القتل والاستعباد؛ وإذا كان هناك من سبب لنجاتهم، فإنه نحن. لقد كنّا ننظر إليهم كأشخاص، ومنحناهم مكانًا يعيشون فيها يليق بهم، في حين أنهم استمروا في تقتيلنا كديدان لا قيمة لها.

وثبت فرقًا عندما قالت «ديدان»؛ لم أستطع كبح نفسي، ولم تلاحظ هي أن قد تكون للكلمة صدى في أعماقي. قالت بهدوء شديد:

- نعم، أرى.
- هل تفضل الموت حقًّا على أن تلد أطفالي يا جان؟

لم أحر جوابًا.

- هل علي أن أذهب إلى شوان هوا؟
- نعم، هوا ترغب في ذلك. دعيها تُحقق مرادها، كما أنه لم تواتها فرصة مشاهدة لوماس. صدقًا، ستشعر بفخر شديد، وليست مرتعبة من أي شيء.

تدفقت تيجاتوي على الأرض دون إلحاح في شيء؛ ما أدهشني كثيرًا.

- سأنام الليلة في غرفة هوا، وفي وقت ما سأقوم بإخبارها هذه الليلة أو في الصباح الباكر.

جرى الأمر بسرعة مذهلة، لكن أختي هوا كان لها دور كبير في تربيتي؛ دور يماثل ما قامت به أمي تجاهي، وكنت لا أزال قريبًا منها؛ لم تكن علاقتي بها كعلاقتي بكوا. نعم، كان لها ميل كبير تجاه تيجاتوي، لكنها بقيت تحبني.

• انتظري، تيجاتوي.

التفتت إلي، وتحاملت على نفسَها مرتفعة بما يقرب من نصف طولها عن الأرض، وتحولت إلي بجميعها مواجهة إيَّاي. قالت:

• جان، هذه أمور تخص الكبار. إنها حياتي، أتفهم؟ إنها أسرتي.
• لكنها... أختي.
• لقد حققت لك ما طلبت، واستأذنتك.
• لكن...
• سيكون الأمر سهلًا عليها، ودائمًا ما كانت تتشوف إلى حمل حيوات أخرى داخلها.

حيوات إنسانية، أطفال بشريّة تكبر قليلًا في يوم من الأيام لتشرب ماء الحياة عن ثدييَها، فلا يتعلقون بأوردتها؛ ويمصون دماءها.

هززت رأسي قائلًا:

• لا تفعلي هذا بها يا تيجاتوي.

لم أكن مثل كوا أبدًا، وإن بدا في الإمكان أن أكونه دون بذل مجهود كبير. كان بإمكاني أن أجعل هوا درعًا أحتمي به. أكان من السهل علي أن أتصور تلك الديدان الحمراء تنمو في لحمها بدلًا مني؟ أعدت الكرة:

• لا تفعلي هذا بها يا تيجاتوي.

جعلت تُحدق في وجهي دون تحول. أجلت نظري في الأنحاء، ثم عُدت إليها قائلًا:

• افعلي هذا بي، بي أنا.

أنزلت بندقيتي عن ذقني، ثم أمالت جسدها قبالتي لأخذها، فقطعتها:

- لا.
- إنه القانون.
- دعيها لعائلتي، فلربما يستخدمها أحدهم لإنقاذ حياتي يومًا ما.

قبضت تيجاتوي على ماسورة البندقية، لكني أحكمت عليها قبضتي. جَرتني تُجاهها، لأجد نفسي أستقر فوقها واقفًا، أعدت عليها القول:

- دعيها هنا ما دمنا بالنسبة إليك لسنا حيوانات، ولأننا في أمور لا تخص غير الكبار، فاقبلي المخاطر، هناك مخاطر يا تيجاتوي دائمًا ما دمت تقبلين بالشريك.

لم يكن تركها للبندقيّة سهلًا عليها كما كان واضحًا. سرت بها رعدة، وأصدرت صوت هسهسة ناطقة بالأسى؛ بدا لي أن الخوف يعتريها، إذ كانت كبيرة بما يكفي لترى ما تفعله البنادق بقومها، والآن عليها الإبقاء على هذه البندقية وأولادها في بيت واحد. لم تدر تيجاتوي شيئًا عن البنادق الأخرى، لكن، لم تكن ذات بال ونحن قائمون في هذا الخلاف. قالت بينما أضع البندقية بعيداً:

- سأزرع البيضة الأولى داخلك الليلة. هل تسمعني يا جان؟

بالطبع ستفعل ذلك، وإلا لماذا أُمنَح بيضة عقيمة كاملة لآكلها، بينما يحظى ما تبقى من الأسرة ببيضة واحدة. ستفعل، وإلا لماذا كانت تعانقني أمي بنظراتها وكأني سأذهب عنها بعيداً، بعيداً بالمعنى الذي لا تستطيع معه أن تراني مرة أخرى؟ أكانت تيجاتوي تظنني أبله ولا أعرف ذلك.

- نعم، أسمع.
- الآن!

سلمت إليها قيادي خارج المطبخ، وسرت أمامها تجاه غرفة نومي. بدا صوتها مُلحًّا إلحاحًا حقيقيًّا وهي تقول: «الآن». رميتها متهمًا:

- أكنت تفعلين هذا في هوا الليلة؟!
- لا بد من ذلك هذه الليلة.

توقفت رغمًا عن إصرارها، وأقمت في طريقها قائلًا:

- ألا يعنيك من؟

انسلت من حولي إلى غرفة نومي، وألفيتها تنتظرني على الأريكة التي نتشاركها. ليس في غرفة هوا ما يمكن استخدامه لإجراء هذا الأمر. أكانت تفعلها بها وهي على الأرض؟! كم أسخطني التفكير في قيامها بعملية التعشيش داخل هوا وهي على الأرض، أسخطني على نحو خاص هذا الحين، واعتمل الغضب داخلي فجأة.

رغم كل هذا إلا أنني خلعت عني ملابسي، واستلقيت بجانبها. كنت أعرف تمامًا ماذا ينبغي علي أن أفعل؛ لقد رُبيت حياتي كلها من أجل هذه اللحظة. شعرت بلدغتها مألوفة، مُخدِّرة، آسرة نوعًا ما. كان مَسْرَوُهَا يجسني جسًّا أعمى إلى أن دَاخَلَ جِسدي بسهولة ودون ألم حقيقي، إذ الولوج أسهل ما في الأمر. تموجت بتؤدة علي، وابتدأتْ عضلاتها في إرغام البيض أن ينسل عن جسدها إلي. تشبثت بطرفَين من أطرافها، فداهمتني صورة لوماس وهو يفعل الشيءَ نفسَه. بعدها أسلمت جسدي إلا أنني اضطربت دون إرادة، فآلمتها، لتصرخ صرخة خافتة من الوجع، لذا حسبت أنها ستحبسني على الفور بين أطرافها، ولما لم تفعل تشبثت بها مرة أخرى، والعار يداخلني بصورة غريبة. همست:

- أنا آسف.

عركت كتفي بأربعة من أطرافها. سألتها:

- هل يعنيك الأمر؟ أعني... هل يعنيك أنك تفعلين هذا معي؟

أسر الصمت لسانها بعض الوقت، وأخيرًا قالت:

- أنت من يقرر كل شيء هذه الليلة يا جان، أما أنا فعقدت قراري منذ زمن طويل.
- هل سألت هوا ذلك من قبل؟

- نعم. قل لي كيف أضع أولادي في كنف من لا يحبهم؟
- إنها لا ... تكرههم!
- أعرف ما كان، وقد كان.
- كنتُ خائفًا.

عم الصمت أرجاءنا.

- إنني ما زلت أنا.

يمكنني أن أعترف لها الآن، وهنا.

- لكنك وافقت فحسب من أجل... إنقاذ هوا، ليس إلا.
- نعم.

أرخيت جبهتي عليها. شعرت ببرودها وملمسها المخملي، ونعومتها الخداعة. قلت:

- ليس هذا فحسب، لكني أردتك لنفسي أيضًا.

لم أفهم معنى كلامي، لكنه كان صادقا وحقيقيا. همهمت برقة قانعة، وقالت:

- لم أتخيل أبدًا أنني يمكن أن أقع في هذا الشَّرَك معك أنت يا جان، لقد اخترتك لنفسي، وآمنت بك تكبر أمامي لي ولاختياري.
- اخترتك، لكن... لوماس.
- نعم.
- لم أعرف أرضيًّا قط رأى عملية ولادة وتسامح معها؛ لقد عاين كوي واحدة، صحيح؟
- نعم.
- يجب أن يُحمى الأرضيون من هذا النوع من الرؤية.

لم يقع قولها الأخير مني موقعًا حسنًا، وداخلني الشك أنه ممكن؛ قلت:

- أيّة حماية؟! رأينا هذا مرات عديدة عندما كنا صغارًا، رأيناه أكثر من مرة. تيجاتوي، حقيقي، لا يتسامح الأرضيون وهذا النوع من الولادة؛ ذلك لأنهم يرون الإنتيليكي في ألم وهلع، وربما يرونه وهو يموت. نظرت إلي أسفل منها:
- إنّه أمر خاص وسري، ولطالما بقي على هذه الصورة.

أثناني صوتها العازم عن الإصرار، لمعرفتي أنها إن غيرت رأيها، فلربما تكون ولادتي مشاعًا، وأكون المثال العمومي الأوّل. لكن، لعلي زرعت الفكرة في رأسها، والفرص تكمن حيث نموها، وفي النهاية لا بد من امتحانها. قالت:

- لن ترى هذا مرةً أخرى. لا أريدك أن تفكر بعد الآن في إطلاق النار علي.

أراحني القدر الضئيل من السوئل المُتدفقة عنها إلي وهي تنقل بيضها في جسدي، تماثل تلك الراحة التهام بيضة عقيمة كاملة. ساعدني هذا الارتياح على النظر إلى البندقية بين يدي، ومشاعري من خوف واشمئزاز وغضب ويأس على أنها ذكرى أستطيع استرجاعها دون إحيائها مرة أخرى؛ مجرد ذكرى يمكنني الحديث عنها. قلت:

- ما كنت لأطلق عليك النار، ليس عليك أنت.

لقد سكنت تيجاتوي جسد أبي واستُلَّت عن لحمه عندما كان في مثل عمري الآن.

أصرت على القول:

- كنت لتفعل هذا.
- ما كنت لأفعل هذا بك.

ما انفكت تيجاتوي تقف حائلًا منيعًا بيننا وبين قومها؛ تحمينا، وتجادل عنا.

- هل كنت لتدمر نفسك؟

تحركت بحرص، لا أشعر بالراحة، وقلت:

- نعم، كنت لأفعل أي شيء لأجلك، بل كدت أنتهي لهذا. وهذا كوي بعيداً؛ أتساءل إن كان يعرف.
- ماذا؟

لم أُجبها.

- إنك ستعيش الآن.
- نعم.

اعتادَت أمي أن تقول: «اعتن بها يا جان»، نعم، سأفعل. قالت:

- إنني في كامل صحتي، وما زلت يافعة. لن أتتركك كما تُرِك لوماس من قبل، لن أخليك إنتليكيًّا وحيداً. سأعتني بك ما بقيت.

سربندي

لم يكن وصلكَ إلا حلمًا، في الكرى أو خلسةَ المختلسِ»

«أقفل الفضل باب داره وانطلق قاصدًا دار المدنيات. ما إن مشى بضع خطواتٍ حتى تذكر أنه نسي عودَه. رجع مغضبًا إلى داره وتناول العود بعصبيةٍ. كيف ينسى العودَ في يومٍ مثل هذا؟ عندما خرج، استقبلته الطيور وهي تغني مؤذنة ببدء يومٍ جديد، وترامت فوقَ وجهه أشعة الشمس وهي تغازل شوارع قرطبة. كان لكل هذا أن يسعده وأن يسرّيَ عنه، لو لم يكن مشغولَ البال بالمصيبة التي أوقعَ نفسه فيها: أن يتحدى زريابَ وفي مدرستِهِ! إنها الحماقة بعينِها.

ولكن ليس من حق هذا الرجل الغريب الذي استقبلته الأندلس فاتحة ذراعيها أن يتبجح مخاطبًا قمر البغدادية يومَ أن التحقت بمعهده: «هنالك شيء عراقيّ لن يتشربه الأندلسيون أبدًا. لا أدري أهو الحزن أَم العمق، ولكن عزفهم يظل مفتقدًا إلى الأصالة». كيف يقولُ هذا، وهو الذي اختير كي يكون أستاذًا ونموذجًا للغناء الأندلسي! إنها الخيانة بعينها. ولكن مهما جادت عليك أرض شبابك وشيخوختِك، يظل انتماؤك الحقيقي يرجع دائمًا إلى أرض ولادتِك. لهذا السبب، نهض الفضل مغضبًا وهو يصرخ مقرّعًا أستاذه: «كذبت! بل إن الأصالة والتوشيح والطرب لم تنبثق إلا من رحم هذه الأرض». قال هذا، والكل يسمع ويشهد: بنو زرياب الثمانية، وابنتاه علية وحمدونة، والجواري فضل وغزلان وهندية ومتعة ومؤامرة وفلة، حتى الشفاء الرومية وقلم الأندلسية، وعباس بن فرناس، كلهم كانوا حاضرين. يتذكرُ الفضل جيدًا كيف امتقع وجه زرياب، وكيف أخذ يتفوه بصعوبة بكل كلمة وكأنه ينتزعها انتزاعًا من شفتيه: «وما أدراك أنت ما الغناء! هل تريد أن تجربَنا؟ لك ذلك. سوف أعطيك مهلة أسبوع، وسنتبارى في العزف ها هنا. إن أنتَ غلبتني، لك أن لا أمسكَ بالعودِ ثانية».

ها قد مرّ أسبوع كامل، دون أن ينبثق صوت أو لحن أو موشح من بين أوتار الفضل. كيف سيستقبل سخرية الأستاذ وطلبته، وكيف سمح لنفسه أن ينصب نفسه مدافعًا عن الديار الأندلسية والغناء الأندلسي دون أن يكون أهلًا لذلك؟ هل ستعني خسارته أمام أستاذه زرياب أن الغناء العراقي أكثر أصالة من الغناء الأندلسي؟ يا للظلم ويا للخسف! لا بدّ أن عشرات الألحان تتراقص الآنَ في مخيلة زرياب الخصبة، لا لشيءٍ إلا لتؤكدَ هزيمة التلميذ أمام معلمهِ الذائعِ الصيت.

بينما الفضل مستغرق في أفكاره، تناهت إلَى أسماعه جلبة ناس يتحلقون حول الساحة المقابلة. استطاعَ الفضلُ أن يستخلصَ من بين الهمهماتِ صوتَ غناءٍ عذب، بالكادِ يُسمع، وكأنه يجري في طبقةٍ سفلية مفصولةٍ عن باقي الأصوات. اتجهت قدماه دون شعورٍ منه ناحية الساحة، ليستقبله جدار من الناس المتجمهرين حولَ فتاةٍ ترقص وهي تغني بصوت منخفض، وتقرع بين أصابعها صنوجًا من الخشب الأسود. كان في غناء ورقص الفتاة شيء يقطع نياط القلوب. سأل الفضلُ رجلًا يقفُ أمامَه:

«ماذا يجري؟ من الفتاة؟ ولماذا يتحلق الناس حولَها؟».

«كل ما أعرفه أنها فتاة مسيحية، وأنها كانت تتعشقُ غلامًا مسلمًا، وأن ذاك الغلام هجرها كي يتزوج ابنة عمه. شيء من هذا القبيل! يقولون أنها خرجت تجري وراءه دون أن يحفلَ بها، وأنها بعد مضي بعض الوقت دخلت دارها، ثم خرجت حاسرة، وهي تغني وتقرع بالصنوج».

كانت الساحة مضلعة في شكلها، حيث تنحدر الأرضية المبلطة بالأحجار لتصنع درجتين متتاليتين، تعطيان للساحة المنخفضة حدودها المستطيلة. تجمهر الناس أعلى الساحة، وجلس بعضهم على الدرجات الحجرية، بينما تركوا الأرضية المنخفضة بكاملها للفتاة الراقصة. لم يتجرأ أحد على الاقتراب منها أو إزعاجها، إذ أنهم كانوا يشعرون جميعًا بماهية الفتاة الشفيفة الناعمة، والتي هي أوهى من أن تُلمس أو تُزعج. حاول الفضل أن يصخي بأذنيه نحو الكلمات التي كانت الفتاة ترددها، والتي كانت تضبط على وقعِها سرعة خطواتها. خُيل إليه أنه سمع شيئًا مثل هذا:

قَلبي هَجَرني
إِذ مَضَى حِبي
ويحي يا ويلي
فليجرِ دمعي الآن

كانت نظرات الفتاة مكسورةً ساهمة، شاخصة إلى مكانٍ آخر، لا ينتمي بأية حال إلى ما حولها. تأمل الفضل وجهها الحلوَ الشاحب، وشعرَها المعقوص الأشقر، وقدميها البضتين الصغيرتين، فأحسّ بحزنٍ شديد. أكثر ما أدهش الفضل هو الطريقة التي اختارتها الفتاة كي تعبرَ عن حزنِها: الرقص. لماذا الرقص؟ لم تبكِ بصوتٍ عالٍ، لم تلطم ولم تمزق ثيابَها، بل رقصت! تمنى لو أنهُ يستطيع أنْ يمسكَ بماهيتها، أن يخلصَ إلى كنهها؛ هل هو الحزن؟ الموسيقى؟ الشجن؟ الفقد؟ ما هو بالضبط؟

فجأةً، انحنت الفتاة بقامتها المنهوكة فوق إحدى العتبات. صنعتْ وسادةً من كفيها، أسندت رأسها، ونامت. تعالتْ الأصوات والصرخات، وكما أن التعويذة التي سمّرت الناس أماكنهم انكسرت فجأة بتوقف الفتاة عن الرقص. تدافع الجميع إلى الأسفل، وعلت الهمهمة وساد اللغط. حاول الفضل الاقتراب نحو جسد الفتاة النائمة، لكن دون فائدة. سرعان ما كاد قلبه أن يتوقف عندما علا الصياح والعويل. لقد ماتتْ! الفتاة المسيحية التي كانت ترقصُ قبل قليل أمامَ الناس ماتتْ! بدون لغط ولا ضجة، تمددت على الأرض، أسندت رأسَها فوق كفيها، ثم أسلمت روحها، كاللحنِ تمامًا.

انشغل الفضل طوالَ الطريق بالتفكير في ماهيةِ الفتاة وكنهِ الشيء الذي رآه. تمنى من كل أعماقه لو أنه استطاع أن يمسك تلك اللحظة الزائلة. لم ينتبه على نفسه إلا وقد توقفَ أمام دار المدنيات. كان تلاميذ زرياب ينتظرونه على عتبة الدار. أحكم الفضلُ قبضته حول عودهِ، وبلع ريقه، ثم دخل. على إحدى الدكات، كان زرياب يتصدر المجلس، وقد تحلق حوله بعض رجالات الدولة والأعيان. إنه لا يتورع – كما جرت عادته – عن تحويل أية منافسة أو مناسبة إلى احتفال يثبت فيه أنه الأفضل. تساءل الفضل: هل يجدر بي أن أعتذر وأخرج، بدل أن أخزي نفسي على رؤوس الأشهاد؟ جلس الفضل في المكان المخصص له، مقابل زرياب. سأله معلمه:

«هل تبدأ، أم أبدأ؟».

«ابدأ أنت».

تناول زريابُ ريشة النسر التي اشتهر بها، وضرب بها سريعًا على أوتاره الخمسة، ثم حين تأكد من ضبط الأوتار، اندفع بصوته الجهوري ليهزّ جنبات القاعة:

قالوا خُراسان أقصى ما يُرادُ بنا
ثمّ القفول فقد جئنا خراسانا
ما أقدرَ اللهَ أن يدني على شحط
سكانَ دجلة من سكانِ جيجانَ

غنى بهذين البيتين، ثم حين فرغ منهما، بدأ يقرعُ بريشته فوق الأوتار بسرعة جنونية، وينقلها من أعلى إلى أسفل، ومن نغمٍ منخفضٍ إلى نغمٍ عالٍ، حتى تمايلَ جميع من بالمجلس طربًا ونشوةً. عندما فرغ، ألقى بريشة النسر، وأخذ ينظر نحو عيني الفضل، مباشرة.

أحسّ الفضلُ بمزيجٍ من الغضب والحرج. لم يأتِ زرياب بواحدٍ من أجمل أصواته وحسبٍ، وإنما اختار أبيات شاعرٍ عراقي: العباس بن الأحنف تحديداً، وهو يتوجعُ على بغداد وبُعدِ بغداد، لكي يوجه إهانة لكل ما هو أندلسيّ. ماذا سيفعل الآن؟ هل ينحني ويعترف بالهزيمة، ويخذل نفسه، ويخذل الأندلس، ويخذل الأرض التي وُلد عليها، ويخذل الموشحات، ويخذل الفتاة؟

عند هذه الفكرة توقف الفضل مصعوقًا: إنها الأندلس! ماهية الفتاة التي كنتُ أتساءل عنها، عن كنهِ رقصها، الأندلس! بعجمتها، وأبياتها التي لا تستقيم على وزن ولا معنى. بحبها المستحيل المتطاول ما بين المسيحية والإسلام. بموتها، بجمالها، وضياعِها. إنها الأندلس! إذا استطعتُ أن أعزفَها، إذا استطعتُ أن أبعثَها ثانية، أن أعيدَ بأوتاري وقع خطواتها، وبطءَ حركاتِها، وفداحةَ حزنِها، وفقدَها، حينها فقط سوف أري زرياب ما كنت أعنيه.

أمسك الفضلُ بريشته، وبدأ العزف. لم يكن على وعيٍ بما يفعل. لم يفكر أين يضع ريشته. لم يفكر أي الأوتار يضرب. كانَ ذهنه منصرفًا كليًّا إلى استحضار المنظر الذي شاهده في الساحة، ولم يكن يدري إن كان هناك انسجام وتوافق بين أفكارِه وبين يدِه. كانت نياطُ قلبه تتقطع، لا بفعل الأنغام التي يعزفها — فلقد كانَ ذهنه منصرفًا كليًّا عن الاستماع إليها — ولكن لأنه كان يعلم في أعماق أعماقهِ أن الأندلسَ ستضيع، كالفتاة التي ماتت، ذلك لأنها بالغة الجمال، بالغة الاكتمال، ومصير كل كاملٍ أن يفنى على هذه الأرض.

أما زرياب وباقي الحاضرين، فلقد شاهدوا عجبًا ذلك اليوم. لقد كان عهدهم بالموسيقى الاستماع، ولكنهم لأول مرة يرونها مجسمةً أمامهم. من ألحان الفضل؛ تكونت فتاة بالغة الجمال، بالغة الحزن، وأخذت تقرعُ بأصابعها صنوجًا ضبابية، وتنقل بينهم خطى حزينة راقصة. لم يجرؤ أحد على أن يتطاول بيده كي يتأكدَ من ضبابيتها، فلقد كانوا يدركون جميعًا ماهية الفتاة الشفيفة الناعمة، والتي هي أوهى من أن تُلمس أو تُزعج. انحنت الفتاةُ على آخر أنغام الفضل نحوَ الأرض، وأسندت رأسها فوقَ كفيها، وعندما انتهى الفضل من عزفه، تلاشتْ وكأنها لم تكن.

التفتَ الجميعُ مذهولين ناحية العازف المغمور، وتدافعوا كي يشدوا على يده ويهنئوه، إلا أنه فاجأهم بأن وضع عوده جانبًا على الأرض، ليغادر الباب بهدوء، وعيناه لا تكادان تبصران من الدموع.

رسائل غرامية

"ليس لديّ ما أقوله سوى أنّي أحبّك"

أبي القوي الصَّموت ، كان في الواقع ذا روح حسّاسة وقلقة، لو كان علي أن أحسب فسأقول بأن والدي تحدث إلي بمجموع 20 فقرة طوال حياته. ما كان التواصل حسنته الفُضلى. بدا بأنه مات مسنا، إذ توفي بسن 59 حين كنتُ بعمر 22. لكن الآن و قد بلغتُ 54، أستوعب أنّه مات شابًّا وترك الكثير مما لم يُقل بعد.

عندما يشرب بضع كؤوس، كان بإمكانه أن يتحدث أكثر قليلا وأن يغدو مرحا. لكن معظم الوقت، فإنّ بابا "يطبق فمه" ؛ أحد تعابيره القليلة التي عادة ما تكون موجهة إلى أمي .

ولأنها اجتماعية ومرحة ، كانت هي الشخص الذي يملأ دائمًا الفراغات التي يتركها بابا. هي بعمر 88 الآن، غيرأنها حين كانت مراهقة أحبت أن ترقص وتكتب؛ ميزات أجزم أنها جذبت أبي الصموت.

كُنّا نعرف أن بابا أحبّنا، لكن ليس بكلماته: عمل في مخزن أطعمة مجمدة في مدينة جيرسي بولاية نيو جيرسي، في مهنة كرهها على الأرجح (رغم أنه لم يتحدث عن الأمر قط) ليعيل أسرته بالشيك الذي يستلمه، وبالسلطعون وشرائح اللحم التي قد "تسقط من مؤخرة" شاحنات التوصيل.

متى ما صعدت إلى السرير معهما معه أو مع أمي، كان يحك لي ظهري. وإذا حصلت على درجات جيدة في شهادتي كان يسحب لي 20 دولارًا من ربطة النقود التي يبقيها في جيب بدلة مخزن الذي يعمل فيه. المرة الوحيدة التي رأيت فيها خط يده كانت حين يوقّع تلك الشهادات.

ولأن لم يحصل بيننا قط حوار ناضج، لطالما تساءلتُ وأنا أكبر ما الذي يستفزه. كان الأصغر بين عائلة من تسعة أفراد

و لُقّب "بيْب Babe". الذي كان مخيطًا بكتابة صفراء على قمصان الكَرْدَحَة (البولِنغ) الزرقاء البرّاقة التي ورثتُها عنه. لم يكن يقرأ كتبًا لكنه كان يلتهم ثلاث صحف في اليوم، على الرغم أنه لم يتحدث قط عن الأحداث الراهنة.

ثم اكتشفتُ أعياد الحب .

ذات ظهيرة قريبة العهد ذكرت أمي عَرَضًا رسائل غرام كتبها لها عندما كان في سلاح مشاة البحرية قبل أن يتزوجا.

رسائل غرام ؟ أخرجت محفظة قماشية من صندوقها الخشبي؛ كان بداخلها صندوق كرتوني بالٍ مملوء بـ 15 رسالة، ثلاثٌ منها لأعياد حب وقطعة شوكولاتة من وِتّمان سامبلر (Whitman's Sampler) التي كانت ستقضي عليها قبل سبعين عاما.

كانت تلك أول رسائل غرام عيد الحب التي تلقتها.

أخذتُ الرسائل المصفرة والبطاقات لبيتي وقرأتُها بعناية، كما لو أني أحاول أن أفك شِفرة عسكرية قديمة. صُدمت بالمراهق المسترسل الفصيح الذي وجدتُه!

مثلت أمامي مغازلة والدَيّ بالأسود والأبيض والأحمر والزهري. مررتُ أصابعي على قلوب الناعمة وانغمستُ في جمل أبي الطويلة و خط يده الحميل، الذي تعرّفت عليه من شهاداتي التي كان يوقّعها. لكن ما عجِبْتُ منه بشدة كانت حيوية علاقتهما. ناقضت السردية كل ما كُنتُ أظن أنّي أعرفه.

كانت الرسالة الأولى المؤرخة في ٨ شباط/فبراير ١٩٤٧م مكونة من ورقة ملاحظات واحدة مطبوعة على ورق مصقول. اشتكى بابا من أيام درجات ما تحت الصفر خارج ثكنته في سكوتيا بولاية نيويورك . كتب : "ليس لديّ ما أقوله سوى أنّي أحبّك".

بعد بضع أسابيع، يتبجّح بحصوله على شريطة إضافية ليصبح عريف، لكنه يستحلف أمي على الكتمان لأنه يريد أن يفاجئ أصدقاءه في بلدتنا. ثم، قبل الختام، يسأل: "هل تحبّينني؟"

لستُ متأكدة ماذا قالت أمي في ردّها، بما أنّه لم يحفظ رسائلها. لكن عندما سألتها، قالت أنها أحبّته، لكن أحبّت حرّيّتها أكثر. كانت في عمر 16 ولم تكن جاهزة للارتباط. كان يكبرها قليلا، بيد أنه نفسه كان طفلا بعمر 19.

تمر الشهور وفي تشرين الثاني/نوفمبر يكتب ما "قد تكون الرسالة الأخيرة". إنّها ليلة السبت وواضح أنه يعاني ألما عاطفيا. يخبرها: "أصدقك القول، أظنك لا تريدين الكتابة إلي"، و يضيف : "من الجيد أنّي عرفتُ الآن كيف تشعرين نحوي بدلًا من المضي قدما والأفضل من ذلك أنه قبل حفل التخرج...ملاحظة : قضّيتُ وقتًا رائعا معك."

بعد أربعة أيام يكتب لها مجددًا، و في نفس الوقت — أخيرًا! — كانت أمي قد ردّت على رسالته. يقول : "عزيزتي أيرين، استلمتُ رسالتك اليوم وصُدمتُ أن اسمع منك. ظننتُها رسالة من جامع فواتيري لكن حين فتحتها عرفت". ويعتذر لها عن النبرة اليائسة في رسالته الأخيرة، ثم يخبرها أن حفلة البحرية كانت ناجحة. لكن "كانت ستكون أفضل لو كُنتِ هنا".

تغيرت نبرته قبل عيد الميلاد بثلاثة. فأمي، الإيطالية الجميلة ذات الشعر الحالك قبل أن يكن الجميلات الإيطاليات ذوات الشعر الحالك هنّ الموضة، أعطته صورة لها .

كتب : "أهلًا ، حبيبتي. عندما أتيتُ هذا الصباح وضعتُ صورتك في خزانتي وفيما أهم بفتح باب الخزانة، أنت هناك ترمقينني مباشرة. رأى الرفاق صورتك وسألوا مَن تكونين. لم يستطيعوا أن يشيحوا ببصرهم عنك في تلك الصورة لذا اضطررت أن آخذ هراوة و أطردهم بعيدًا ... تبدين حقيقية جدًّا أحيانا لدرجة أود تقبيلك بها لكنّي أفضّل أن أنتظر حتى أرجع". شكرها على الهدية، ولّاعة فضية نحيلة من دَنهِل (Dunhill) ابتاعتها ذات مرة من محل مجوهرات. "كل وقت أشعل سيجارة، أفكر فيك دائما".

أعرف من صور قديمة أن أبي الوسيم رافقها لحفل التخرج بزيه الرسمي، لكن يبدو أنّها كانت ما تزال تكبح عواطفها. يقول بعد أسابيع: "أنا متيقّن أنّي أعرف ما هي تلك الكلمات الثلاث التي تدور في بالك، فلتقولي لي ما هي"

تبع الأمر بعضا من العراك، لأنه بحلول شباط/فبراير طلب غفرانها. إنّها تُندف ثلجًا، عامٌ كامل مَرّ على تلك الرسالة الأولى، يخبرها عن كنيسة قديمة احترق قرب سكنيكتادي". كانت النيران هائلة لدرجة يمكنكِ تستطيعين رؤيتها من من أميال بعيدة". إنّها الاستعارة المُثلى لما يجري خلال مغازلتهما وهو يستغلها بكل معناها.

"مهما كان الذي قُلتُ فأحزنك، أرجوك سامحيني. ما زِلتُ أحبّك. بل أنا أحبّك أكثر الآن ممّا كُنتُ قبلا". ويختم بسؤال يائس : "هل تحبّينني؟ لماذا؟"

أصابتني هذه الـ"لماذا؟" في مقتل. أبي ، القوي والصامت كل الوقت، كان بهذه الحساسية، روحًا قلقة داخل زيه البحرية ولاحقًا بالزي الرسمي للمخزن. الآن وقد عرفتُه أفضل، اشتقتُ له وأرثي فقده حتى أكثر. أردتُه هنا لأطيل المقام معه وأضحك وأبكي معه. مسحتُ عينيّ وأكملتُ القراءة .

في نيسان/إبريل، بدأ يعد الأيام ـ ١٣٥ ـ حتى يعود للديار للأبد. وفي أيّار/مايو يحدّثها عن حادث سيارة. "أحد الشباب ما زال في غيبوبة و لا نعرف إن كان سينجو".

هزته التجربة التي دنت من الموت. "أنتِ في بالي كثيرًا حتى أنّي لا أستطيع أن أفكر في أي شيء آخر .... أريدكِ أن تصدقيني لأنّي أحبّك وأنت غالبًا تعرفين هذا الآن .... لكنّي لستُ متأكدًا إن كُنت تحبّينني. سبب قولي هذا الرسالة الأخيرة. ليس علي أن أعيدها لأنّكِ أنتِ مَن كتبها".

الله أعلم ماذا كتبت أمي .

قالت لي : "ما كان عساي أن أقول ؟ استسلمتُ"

تتحدث رسالة أخيرة عن قدومه الديار وعن ضرورة أن "تجهّز الأنبوب". تردّدتُ في سؤالها عن المعنى، لكن تبيّن أنّه في غاية البراءة. كان يعني أنبوب الحُمْرَة ، لأنّهما كانا سيفرطان في التقبيل.الرسالة مطويّة بشكل معقّد في مستطيلات صغيرة وأستطيع تخيّل أبي الفَتيّ يقضي الوقت وهو يطويها ويطويها مرة بعد مرة، ويضعها في ظرف صغير يرسله إلى حبّ حياته .

مكتوب على المقدمة في كل الأغلفة هذه الكلمات :"ما زِلتُ أحبّك".

أردتُ أن اكتب له لازلت أحبك أيضا.

الأرض

من المستحيل إذن معرفة ما يحتاجه البشر بهذه الطريقة. لكن، ربما، فهمت في النهاية

استدعى العَليّ الأعلى ملاكاً بردائه الناصع البياض وقال له: ((أريد منك أن تصيخ السمع إلى الأرض جيداً. وعندما تسمع شيئاً منها، أخبرني بذلك)).

أصغى الملاك ذو الرداء الأبيض إلى الأرض طويلاً، وأجاب: ((أسمعُ نحيباً. الأرض تبكي. وأسمع شيئاً ما يصرخ، صراخ وأنين، أصوات أطفال يتألّمون. الأرض تتألّم. وأسمع ضحكات سخرية، صرخات شهوة وهمهمات قاتل. الأرض ترتكب خطايا. وقاطنو الأرض خائفين)).

قال العَليّ الأعلى: ((أرسلتُ العديد من أقرانك إلى الأرض ولم يَعُد منهم أحد حتى هذه اللحظة. انتظر رجوعهم بلا جدوى وأكاد أبكي ألماً وحرقة، لكنهم لم يأتوا، والأرض مازالت تبكي، حتى بَهُتَت نجوم سمائي وأصبحت مظلمة. أشعر بالأسى من أجلك، لكنّ دورك قد حان: امضِ إلى الأرض، اظهَرْ بهيئة إنسان، وسِرْ بينهم، حاول فهمَهُم وما هي حاجاتهم. ابتعد عن الثرثارين لكن لازِم الهادئين، حتى يتكلّموا، وحافظ على كلماتهم بعناية، كما لو أنها اللؤلؤ المكنون. العَب مع الأطفال المَرحين، لكن تذكّر أنّ هناك أطفال حزينين وجوههم شاحبة، وعيونهم واسعة ومظلمة. أطفال لا يضحكون ولا يلعبون، لا يعرفون من تسالي طفولتهم البرئية شيئاً، حزنهم رهيب وقاتم حتى بالنسبة لإله، لهؤلاء الأطفال قدّم لهم محبّتك ورحمتك الملائكية. سأنتظرك بفارغ الصبر، سأوقِفُ اسوداد النجوم وسأضاعف نورها بنور أملي)).

تلقّى الملاك بركات مولاه واستقام طواعيةً بردائه الأبيض البرّاق ثمّ قفز من أمام العرش القُدسي هبوطاً نحو الأرض البائسة والتعيسة. في تلك الليلة الظلماء، كانت تجتاح الأرض عاصفة رعدية هوجاء مدمّرة، إذ قضى الكثيرون نحبهم تحت أنقاض منازلهم المُهَدّمة، أو غرقاً في أعماق البحار الهائجة. ولَمَعَ البرق...

والآن عاد الملاك، بردائه الأبيض البرّاق، مَثُلَ أمام عرض مولاه بطواعية وتهيّب بانتظار أسئلته. شعر العَلي الأعلى بالسعادة لعودته واحتفى به بأن أبرَقَ السماء بعدد من الشُهُب التي زيّنت سماء الليل: لتشكّل وهجاً نصف دائري. وكان العَلي الأعلى في غاية السعادة أيضاً لرؤية مدى بياض ونصاعة رداء الملاك. وهنا بدأ بطرح أسئلته:

((أنا سعيدٌ جداً بمجيئك، أنت تستحق مكانك في السماء بجدارة، ولكن أخبرني يا عزيزي _ أليست الأرض نغطّاة بالدماء والقذارة؟ أنا لا أرى أي آثار منها على ردائك)).

أجاب الملاك: ((كلا، أبتي، الأرض مليئة بالقذارة والدماء والسخام، لكنني تفاديتها وتجنّبت أي احتكاك بها، لذا حافظت على نصاعة ردائي)).

تجهّم وجه العليّ الأعلى وسأل متشككاً: ((لكن هل توقّف سكان الأرض عن إراقة الدماء عليها؟ لا توجد ولا بقعة دم واحدة على ردائك. بل هو ناصع البياض كالثلج)).

أجاب الملاك: ((كلا، يا أبتي، الدماء تجري على وجه الأرض جَريَ الأنهار، لكنني تفاديتها، لهذا حافظت على نظافتي. وبما أنّه يستحيل السير بين البشر وتفادي قذاراتهم ودمائهم والحفاظ على نظافة الرداء، لم أهبط إلى الأرض وأمشي على سطحها، بل حلّقت فوقها على ارتفاع منخفض، ومن هناك أرسلت أمطرت قاطنيها بابتساماتي وملاماتي وبركاتي...)).

قال العليّ الأعلى: ((من المستحيل إذن معرفة ما يحتاجه البشر بهذه الطريقة. لكن، ربما، فهمت في النهاية)).

أجاب الملاك: ((إطلاقاً يا أبتي، الشيء الأساسي الذي فعلته هو أنني علمتهم كيف يعيشون بدون معاناة، بدون مآسي، بدون دموع، وبدون دماء، لكنهم لم يضغوا إليّ جيداً يا أبتي، هم ما يزالون على قذارتهم كما كانوا من قبل، كالحيوانات، وبرأيي يجب إبادتهم جميعهم عن بكرة أبيهم)).

_((أهذا ما تعتقده؟))

_((نعم يا أبتي. لكن هذا ليس أسوأ ما في الأمر، أنّهم عَناء الليل والنهار، يشتمون ويبكون، ينحنون بنفس القدر لك وللشيطان، إنّهم يتمرّغون في القذارة الدموية، لكنّ الأمر الرهيب حقاً، والفاحش، وغير المقبول أنّ ملائكتك، الذين أرسلتهم من قبل، ملائكتك ناصعو البياض من قطيعك القدسي، تلطّخوا بالدماء والقذارة لدرجة بات يصعب فيها تمييزهم، لقد تلطّخوا بدمائهم وتلوّثوا بقذاراتهم، وتورّطوا بخطاياهم وجرائمهم)).

_((وهل رايتهم؟))

_((بكل أسف، لقد رأيتهم وشَهِدتُ حالهم يا أبتي. لكنني لم أنحن لهم، بل تظاهرت بأني لم أتعرّف عليهم، إذ أنّ اغلبهم لم يعد محتفظاً برصانته، وخاطبوني بطريقة غير مهذّبة، وارتكبوا أعمالاً غير لائقة، بل وحتى مشينة)).

_((أين رأيتهم يا عزيزي؟))

_ ((أشعر بالحرج لمجرّد الإفصاح مولاي. لقد رأيتهم في الحانات وفي السجون، يأكلون من وعاء مشترك مع اللصوص والقَتَلَة. لقد رأيتهم بين الزُناة، الصحفيين، والخُطاة على اختلاف أنواعهم. من المستحيل وصف ما حَدَثَ لأروبتهم: لم يفقدوا أسلوبهم الملائكي فحسب، بل تمزّقت أرديتهم وتحوّلت إلى مادّة يُرثى لها، حتى أصبح لونها لا يمكن تمييزه تقريباً: في سعيهم خلف الأناقة غطّوا أنفسهم ببقع من ألوان أخرى، بمواد ذات لون أحمر حتى. سمعت أنّ العديد منهم يتوقون إلى السماء والعودة إليها، حتى أنّهم لديهم أمر يتشاركون فيه جميعاً، لكنهم يخشون العودة الآن في وضعهم الحالي. في إحدى الليالي، رأيت مشرّداً نائماً، كان مخموراً ويهذي، وتعرّفت من فوري على ذاك الملاك المتمرّد، أرسلته أنت ومنحته كامل الثقة، وهذا ما سمعته منه وسط تخريفاته وشطحاته التجديفية: ((أشعر بالمرارة بعيداً عن السماء، التي حُرِمتُ منها، لكنني لا أريد أن أكون ملاكاً بين البشر، لا أريد رداءاً أبيض ناصعاً، لا أريد جناحين!)). هذا ما نطق به حرفياً هذا المارق يا أبتي: ((لا أريد جناحين!)).

بهذا نفض الملاك ريشه الأبيض منهياً روايته، ثم انتظر المديح والثناء من العَليّ الأعلى على نظافته وحذره الحكيم. لكن بدلاً من ذلك، اجتاح العليّ الأعلى غضب جارف وحكم على هذا المعصوم البائس باللعنة الأبدية. وعندما هدأت ثورة الأب السماوي، وخفّ بريق البرق الرهيب في عينيه، تكلم بنبرة هادئة مخاطباً الملاك النقي:

((غادر من هناك حالاً ولا تَعُد حتى تتّحد مع معاناة الإنسان بجسدك وروحك معاً. افهم ما أقوله وتذكّر جيداً، يا صغيري، هذه الأردية الناصعة ليست ضرورية سوى لأولئك الذين لم يغادروا السماء قط: أمّا بالنسبة لأولئك الذين هبطوا إلى الأرض، فإنذ هذه الأردية البيضاء، كردائك، خزي وعار!. أرى أنّك حافظت على نفسك وأمنتها، ولهذا أنت تثير اشمئزازي. غادر بسرعة، وإلا فالبرق يعتمل بصدري منك. وعندما تقابل على الأرض رُسُلي السابقين من قبلك، هؤلاء الذين يخشون العودة، أخبرهم باختصار وبسماحة، إذ أنك ستنطق بلساني وتتكلّم نيابةً عني: "عودوا إلى السماء، لا تخافوا ولا تخشوا شيئاً، أباكم يحبّكم وينتظركم بفارغ الصبر")).

نخر الملاك المُعَنّف هازئاً بمرارة، وبشكل مسموم حتى، لكنه تظاهر بمظهر متواضع وأخفض عينيه وأجاب: ((لقد أخبرتهم ذلك، لكنهم ليسوا راغبين))

_ ((ما الذي لا يرغبونه بالضبط؟))

_ ((إنّهم لا يرغبون في العودة إلى السماء)).

_ ((هل هم خائفون؟ أخبرهم بأنني سأمنحهم أردية جديدة))

_ ((كلا. إنّهم لا يريدون ذلك. هذا ما قالوه يا أبتي: "إذن سنعود إلى السماء ونرتدي أردية بيضاء مرة أخرى، لكن ماذا عن أولئك الذي غادروا؟ إذا كنا سنعود، فسنعود كلّنا أجمعين، وإلا فلا عودة")).

استغرق العليّ الأعلى في التفكير فترة طويلة، وأخيراً قال: ((هكذا إذن هي الأرض. أرى الآن ضعف ملائكتي وقلّة حيلتهم، وبدأت أعتقد أنّ علي الهبوط إلى الأرض بنفسي)).

قال الملاك: ((جميعهم كانوا ينادونك ويتضرّعون إليك وينتظرونك زمناً طويلاً الآن. ولكنك يا أبتي _سامحني على وقاحتي_ إذا هبطت إلى الأرض، فإنّك لن تعود مرة أخرى)).

قال العليّ الأعلى متعجّباً: ((وماذا عن سماواتي ومملكتي إذن؟ ستغدو فارغة وخاوية)).

_ ((إنهم يقولون: عندئذٍ ستقوم مملكتك على الأرض، وعندها لن تحتاج أنت، ولا حتىً هم أنفسهم، ولا حتى الإنسان المُعَذّب والمُضطَهَد إلى سماوات أخرى، هذا ما يقولونه هم، وأنا أرى أنّهم على حق. وداعاً يا أبتي، مرة أخيرة وإلى الأبد!)).

بهذه الكلمات ودّع الملاك مولاه الأعلى وقفز هابطاً نحو الأرض مرة أخرى حتى اختفى أي أثر له بين دموع الأرض وقذاراتها ودمائها. وتجمّدت السماوات في تأمل وسكون ثقيل، في محاولة للإصغاء إلى الأرض الصغيرة والحزينة _صغيرة جداً وكئيبة ورهيبة وغارقة في مآسيها وحزنها. كانت الشهب الاحتفائية تتلاشى وتخبو بهدوء، وفي ضوء مساراتها الحمراء بدا العرش القدسي خاوياً وبارداً حدّ المَوات.

اضطراب

صرخت بذعر "أيها الأوغاد"... يكفي خداع! إنني أعترف.. أعترف بالجريمة! انزعوا الألواح، هنا.. هنا، إنها دقات قلبه اللعين!"

هذا صحيح.. أنا عصبي، عصبي جدًا فوق ما تتصور، كنت وما زلت محافظًا على عصبيتي المريعة هذه. لكن لمَ قد يخطر على بالك أني مجنون؟ فالمرض لم يفسد حواسي، ولم يدمرها، على العكس تمامًا بل جعلها أكثر حدة. وأول هذه الحواس، حاسة السمع والتي أصبحت حادة جدًا. فأنا يا عزيزي أسمع ما يُسمع ومالا يُسمع، سمعت كل الأشياء التي في السماء وتلك التي في الأرض، سمعت حتى الأشياء التي تقبع في الجحيم. إذًا كيف تتهمني بالجنون؟ أنصت إليّ جيدًا! ولاحظ كيف أستطيع بهدوء وعقلانية أن أحكي لك القصة كاملة.

من الصعب إخبارك كيف تبلورت الفكرة داخل رأسي لأول مرة، لكني بمجرد تخيلها علقت داخلي، فأصبحت تراودني ليلة تلو الليلة، فبات رفضها مستحيلا. هدف..؟ لم يكن هناك ثمة هدف. كره..؟ أوه لا، لا يتعلق الأمر بالعواطف أبدًا، فقد أحببت ذاك الرجل العجوز جدًا، فلا هو مرة أهانني ولا هو مرة خطّأني. ربما تقول أنني أسعى وراء ذهبه..؟ لا يا عزيزي لم أرغب أبدًا في سرقة ذهبه. حسنًا سأخبرك.. أعتقد أنها إحدى عينيه. نعم..! كانت إحدى عينيه تشبه عين النسر، زرقاء شاحبة يغطيها غشاء رقيق. في كل مرة أنظر إلى عينه تلك، كنت أشعر ببرودة تسري في أطرافي، وكأن دمي كان يتجمد في عروقي شيئًا فشيئًا، وهكذا قررت أن أحمل على عاتقي خطف حياة هذا الرجل، لأتخلص من هذه العين إلى الأبد.

الآن أنت ما زلت تتخيلني مجنونًا، المجانين يا صديقي لا يعرفون شيئًا. أما أنا.. آه ليتك رأيتني حينها، كان يجب أن تراني كيف كنت أفكر بعقل يملؤه الحكمة، وبشخصية يملؤها الحذر، وبعين بصيرة عزمتُ على فعل ما كنت أفكر به. نزلت عليّ رحمة وسكينة عجيبتين خلال الأسبوع الذي يسبق قتلي للرجل العجوز، لم أشعر بهما من قبل. وفي كل ليلة، تحديدًا في منتصف الليل كنت أمسك بمقبض بابه وأفتحه بكل هدوء، فأنا لا أريد إزعاج الرجل المسكين، آه يا لرقة قلبي! صنعت فتحة تسعِ رأسي، ثم أدخلت فانوسًا داكن اللون، مغلق الجوانب، لا ينفذ الضوء منه. بعدها أدخلت رأسي من خلال تلك الفتحة، أوه، لو رأيتني كيف أدخل رأسي بمكر وخبث لضحكت عجبا! أدخلته ببطء شديد، فأنا كما أخبرتك لا أريد أن أيقظ مضجع الرجل العجوز. لقد أخذ هذا الأمر مني ساعة كاملة كي أتمكن من رؤيته وهو نائمٌ على سريره. ها..! هل يمكن لرجل مجنون أن يكون بهذه الحنكة.. ها؟ أخفضت ضوء الفانوس بحذر شديد، شديد جدًا، لأن مفتاحه اللعين كان يحدث صريرًا مزعجًا، ولكني أبقيت شعاع ضوءٍ نحيل ووجهته ليسقط على عين النسر. مرت سبع ليال طوال وأنا على هذه الحال، كل يوم وفي منتصف الليل أكرر ما أفعله، لكن لسوء حظي كنت أجد العين دائمًا مُغلقة، فاستحال عليّ فعل فعلتي. فلو كان العجوز هو الذي يثير غضبي لأتممت مهمتي من أول ليلة وأرحت نفسي، لكنها كانت عينه، عينه الشريرة. كنت كل صباح أذهب بكل وقاحة إلى حجرته وأتحدث إليه بكل جرأة، أناديه باسمه، بنبرة عطف وحنان، مستفسرًا إياه عن حال ليلته. لعلكم أدركتم كم كان هذا العجوز قد بلغ من الكبر ما بلغ حتى يخطر في باله أن أحدهم، والذي هو أنا، يحدق فيه وهو نائم كل ليلة عند الساعة الثانية عشر.

وفي الليلة الثامنة كنت أكثر حذرًا عندما فتحت الباب، كنت أفتحه ببطء شديد، حتى أن عقارب ساعتي كانت تتحرك أسرع من يدي! شعرت في تلك الليلة بمدى قوتي الهائلة وفطنتي العظيمة، شعورٌ لم أشعر به من قبل. حاولت جاهدًا احتواء مشاعر الانتصار، أخيرًا سأفعل ما خططت له! فتحت الباب شيئًا فشيئًا، وفكرة أن المسكين لم يحلم حتى بأفكاري وأفعالي هذه، أضحكتني، فضحكت بصوت منخفض لكن يبدو أنه سمعني، لأنه تحرك فجأة، وجلت وثبت مكاني. ربما تحسبني الآن أنني انسحبت وتركت ذاك العجوز بسلام! لا يا عزيزي، فلقد وصلت إلى مرحلة متقدمة جدًا. كان الظلام يلف غرفته، فكانت النوافذ مؤصدة بإحكام خوفًا من اللصوص، أراحني هذا الأمر من أنه لن يستطيع رؤية فتحة الباب التي صنعتها، بل لن يستطيع رؤية أي شيء. استمريت في دفع الباب رويدًا رويدا...

فهمَمت حينها بفتح الفانوس، لكن إبهامي انزلق فجأة من على القفل الصفيحيّ مما أفزع مضجع الرجل العجوز المسكين وجعله يقفز من نومه ويصيح مذعورًا "من هناك؟" بقيت في مكاني من دون حراك، ولم أتفوه بكلمة واحدة. بقيت هكذا ساعة كاملة، لم أحرك حتى عضلة! وفي هذه الأثناء لم ينم العجوز، بل بقي مستيقظًا يتسمع، تمامًا مثلما كنت أفعل، ليلة تلو الأخرى، أستمع إلى دقات ساعة الموت، تك..توك..تك..توك!

وبعدها سمعت أنينًا خافتًا، لقد كان أنينُ هلعٍ من الموت. فلم يكن ذاك الأنين الصادر من الألم أو الحزن، أوه لا.. لَم يكن كذلك، بل كان صوتًا مخنوقًا من أعماق روح مشبعة بالخوف. إنني أعرف هذا الصوت جيدًا، ففي منتصف كلِّ ليلة وعندما يغمض العالم عيناه، كان هذا الصوت يصدر من داخلي أنا، من أعماقي، بصداه المروّع الذي كان يكاد أن يدفعني إلى الجنون! قلت إني أعرفه، نعم أعرفه جيدًا وأعرف كيف يشعر هذا العجوز الآن وأشفق عليه، مع أني كنت أضحك في سرّي. كنت أعلم أنه كان ينام مستيقظا من أول صوت سمعه، منذ ذلك الحين ومخاوفه بدأت تتصاعد، كان يحاول أن يقنع نفسه أن مخاوفه لا صحة لها، لكنه لم يستطع. فأخذ يقول لنفسه: "هذا ليس إلا صوت الريح في المدخنة، أو فأرٍ يتجول في الغرفة، أو صريرُ صرصار الليل، أو أو أو..." نعم لقد كانً يحاول طمأنة نفسه بهذه الافتراضات لكن بدون جدوى، كل هذا لم يفلح بشيء. فالموت يحبو نحوه، ويلفه بظله الأسود. لك أن تتصور مدى الشعور المُحزن والكئيب الذي كان يشعر به الرجل العجوز، فقد كان يشعر بالموت يلفه من كل جانب، مع أنه لم يكن يدري بوجودي في غرفته.

أوه.. لقد انتظرت طويلا.. طويلا جداً، لكن الرجل بقي مستيقظًا. فقررت أن أصنع شقًا صغيرًا جداً في الفانوس، فخرج منه شعاع نحيل خافت، نحيل كخيطٍ من خيوط العنكبوت، ومباشرة وقع على عين النسر.

كانت عينه شاخصة، وكان غضبي يزداد كلما حدقت بها. رأيتها بكل وضوح، زرقاء شاحبة يغطيها غشاء قبيح، يقشعر بدني منها. لم أكن أرى في الغرفة كلها إلا هذه العين اللعينة لأن شعاع الفانوس كان موجهًا نحوها فقط.

ألم أخبرك من قبل؟ ألم أخبرك بأنك مخطئ؟ هذا ليس جنونًا بل حدة الحواس. لقد دغدغ أذني صوتٌ مشوش ومنخفض وحاد كصوت ساعة لُفت بقطعة قطن، بالكاد تسمعه. لكني عرفت هذا الصوت جيداً، لقد كانت ضربات قلب ذاك العجوز. إنها تُشعل غضبي كما تشعل دقات الطبول في المعارك حماس الجنود.

ما زلت واقفًا بلا حراك، حاملًا فانوسي وبالكاد ألتقط أنفاسي. وبينما كنت أحاول تثبيت الضوء على عينه، كانت دقات قلبه تزداد كقرع الطبول، إنها تتسارع أكثر فأكثر، وترتفع أكثر فأكثر في كل لحظة. لابد أن الرجل العجوز بلغ من الخوف ما بلغ! أقول لك إن صوت دقات قلبه يزداد ارتفاعًا في كل لحظة، كل لحظة.. هل أنت واعٍ لما أقول؟! لقد أخبرتك أنني عصبي، وأنا صدقًا كذلك.

ساعة الموت تصدع بدقاتها الصمت الرهيب لهذا المنزل العتيق، دق.. دق.. دقاتها المزعجة تدفعني إلى خوف لا أستطيع السيطرة عليه. مع ذلك ظللت واقفًا في مكاني لبضع دقائق، ولكن نبضات قلبه ترتفع وترتفع ارتفاعا فظيعا، حتى ظننت أن قلبه سينفجر. وبدأ ينتابني قلق آخر، لربما سمع الجيران صوت نبضات قلبه المرتفعة! أوه... لقد حانت ساعة الرجل العجوز، ولا يجب أن أنتظر أكثر. صرخت بكل صوتي وأضأت الفانوس كله، ثم اندفعت إلى وسط الحجرة اندفاعًا. لقد صرخ صرخة واحدة، واحدة فقط. في لحظة جرَرته إلى الأرض وأطبقت السرير فوقه إطباقًا. تبسمت فرحًا، فأخيرًا أتممت فعلتي. بعد دقائق معدودة سمعت صوتًا.. صوتًا مكتومًا، إنه صوت نبضات قلبه! لا يهم، فالصوت لن يزعجني، فلن يخترق الجدران، ولن أسمعه. كما أنني أبعدت السرير من فوقه لأتفحصه، ووضعت يدي فوق قلبه لعدة دقائق، لم يكن هناك نبض، لقد كان جثة هامدة. حُق لي أن أنام الآن قرير العين، فلن تزعجني عينه بعد ذلك.

ها.. أما زلت تظنني مجنونًا؟! صدقني ستتراجع عن رأيك عندما أصف لك حكمتي في اتخاذ الاحتياطات لإخفاء الجثة. بدأ الليل ينكشف، كنت أعمل بسرعة لكن في صمت. أولًا وقبل كل شيء بدأت بتقطيع الجثة، قطعت الرأس والذراعين والساقين.

اصبر.. ستكتشف الآن أين حكمتي.

بعدها أخذت ثلاثة ألواح من الخشب الذي يغطي أرضية الغرفة ووزعت أعضاؤه بين قطع الخشب، بعدها أعدت الألواح إلى مكانها بكل مهارة وذكاء، بحيث لا يُمكن لأي عين بشرية ـ ولا حتى عينه هوـ أن تشك بأي شيء. ولم يكن هناك أي شيء بحاجة إلى التنظيف، لا بقع دم أو غيره، فقد جمع حوض الاستحمام كل شيء.

ذكيٌ فطن!

كانت الساعة الرابعة تمامًا عندما انتهيت من هذا العمل المُجهد، ولكن الليل كان حالكًا كأنه في منتصفه. دق جرس المنزل، أحدهم يطرق الباب. ذهبت لأفتح بقلب مرتاح، فليس هناك شيئًا أخشاه، أليس كذلك؟! فتحت الباب فإذا بثلاثة رجال عرّفوا بأنفسهم بكل لباقة بأنهم ضباط شرطة. أخبروني أن أخبارًا وصلتهم بأن أحد الجيران سمع صرخة مُفزعة خلال الليل، واشتبهوا بأن يكون هناك جريمة مدبرة، فأرسل مركز الشرطة هؤلاء الضباط للتحري عن الأمر وتفقد المنطقة.

ابتسمت.. فليس هناك شيئًا أخشاه، أليس كذلك؟ رحبت بالسادة الضباط، وقلت: الصرخة؟ ليست إلّا صرختي أنا من كابوس مفزع. أخبرتهم بالطبع عن الرجل العجوز وأخبرتهم بأنه ذهب إلى الريف. أخذتهم في جولة حول المنزل، وطلبت منهم أن يبحثوا، ويبحثوا جيداً، أكملنا الجولة وأخذتهم إلى غرفة الرجل العجوز، وجعلتهم يتفقدون محتويات الغرفة جيداً. أريتهم ممتلكاته، وكيف أنها مرتبة ولم يمسسها أحد. ولحماستي الشديدة وثقتي بأن يُستحال على أحد أن يكتشف فعلتي، أحضرت كراسي وأجلست رجال الشرطة في غرفة الرجل العجوز، وجلست أنا ـ لثقتي الزائدة ـ واضعًا كرسيي فوق بقعة الجثة، مُثبتًا لنفسي انتصاري الساحق.

كانوا ضباط الشرطة مقتنعين بكل شيء أقوله، فقد أقنعتهم أخلاقي الرفيعة بأن كل شيء على ما يرام. كانوا يسألون وأجيبهم بكل حماس وشجاعة، ثم أخذوا يتحدثون عن جرائم مألوفة. وبعد هُنيهة شعرت بأن وجهي أصبح شاحبًا فتمنيت في سري لو أنهم يذهبون. ثم أخذ رأسي يؤلمني ألمًا فظيعًا، وخُيِّل إليّ أن رنينًا يصدح في أذني، تمنيت لو أنهم يذهبون، لكنهم مازالوا هناك يتحدثون. ازداد الرنين وضوحًا أكثر فأكثر بشكل مستمر، حاولت أن أتكلم بأريحية أكثر لأتخلص من هذا الشعور المربك، فإذا بالرنين يزداد وضوحًا، لأكتشف فيما بعد أن هذا الصوت المزعج لم يكن مصدره أذني!

لا شك أن وجهي الآن ازداد شحوبة، على الرغم من هذا أكملت حديثي بفصاحة وبنبرة عالية واثقة. لكن الصوت مازال يرتفع، يا إلهي ماذا يمكنني أن أفعل؟ لقد كان صوتٌ مشوش ومنخفض وحاد كصوت ساعة لُفت بقطعة قطن. التقطت أنفاسي برعب، ومازال ضباط الشرطة يتحدثون ولم يسمعوا ما أسمع، حاولت التحدث بسرعة، تحدثت عن أمور تافهة بغضب وعصبية، لكن الصوت ظل يرتفع ويرتفع. يا إلهي لم لا ينصرفون؟ أخذت أمشي ذهابًا وإيابًا على أرضية الغرفة بخطوات قوية غاضبة ملمحًا لرجال الشرطة بأن ينصرفوا، حنقت واهتجت وسببت ولعنت! أخذت أهز كرسيي وأحكّه على الألواح، مازال الصوت يرتفع ويرتفع ويرتفع، ومازال رجال الشرطة يتحدثون ويبتسمون بكل أريحية. أوه يا إلهي.. يا قادرًا على كل شيء، أيُعقل أنهم لم يسمعوا هذه الضوضاء، ألم يسمعوا هذا الصوت المزعج؟! لا لا.. بل سمعوا وشكّوا.. إنهم يعرفون.. يعرفون كل شيء، وكل تمثيلهم هذا ما هو إلا استهزاء بي وسخرية من رعبي! هذا ما ظننته، وهذا ما أظن. لقد كان أي شيء أرحم من هذا العذاب! يمكنني تحمل أي شيء ولا هذه السخرية!

لم يعد بإمكاني تحمل هذه الابتسامات المنافقة. شعرت أنني لابد أن أصرخ وإلا سأموت! والآن مرة أخرى، أنصتوا.. أعلى فأعلى فأعلى..! صرخت بذعر "أيها الأوغاد"... يكفي خداع! إنني أعترف.. أعترف بالجريمة! انزعوا الألواح، هنا.. هنا، إنها دقات قلبه اللعين!"

الفهرس

- القصة القصيرة لحظة اختزلت في لحظة 01
- طفل الدم 03
- سربندي 39
- رسائل غرامية 46
- الأرض 52
- اضطراب 59